Bibliotheca Alexandrina
0011879

إدريس أفندى
فى مصر

مذكرات الفنان والمستشرق الفرنسى

بريس دافين فى مصر

(١٨٠٧ - ١٨٧٩)

مكتبة الأسكندرية

■ المشرف على التحرير : جمال الغيطانى

● العدد ٣٢٣ ●

أسسه

مصطفى أمين وعلي أمين

ثقافة اليوم وكل يوم

رئيس مجلس الادارة

إبراهيم سعده

العدد ذو الحجة ١٤١١ هـ

٣٢٣ يوليو ١٩٩١ م

تموز

الصحافة ت ٧٥٨٨٨٨ عشرة خطوط

تلكس دولى ٩٢٢١٥ ـ محلى ٩٢٢٨٢

الاشتراكات

جمهورية مصر العربية

قيمة الاشتراك السنوى ٢٠ جنيه مصرى

الوطن العربى

دول اتحاد البريد العربى والافريقى ٢٠ دولار امريكى أو ما يعادله باقى دول العالم وأوربا والأمريكيتين واسيا واستراليا ٢٠ دولار امريكى أو ما يعادله

● ويمكن قبول نصف القيمة عن ستة شهور

● ترسل القيمة إلى الاشتراكات ٣ ا ش الصحافة القاهرة ت ٧٤٨٨٤٤ (٥ خطوط)

أسعار كتاب اليوم

المغرب	٢٠ درهم		
لبنان	٧٥٠ ليرة		
الاردن	٢٥٠ فلس		
العراق	٧٠٠٠ فلس		
الكويت	٧٠٠ فلس		
السعودية	٧ ريالات		
السودان	١٥٠٠ قرش		
تونس	١٢٥٠ مليما	سلطنة عمان	٧٠٠ بيسة
الجزائر	١٧٥٠ سنتيما	غسزة	١٠٠ سنت
سوريا	٣٠ ل.س	ع. اليمنية	٢٣ ريال
الحبشة	٦٠٠ سنت	الصومال جيبوتى	٨٠ بنى
البحرين	٨٥٠ فلس	السنغال	٦٠ فرنك
		الامارات	٨ درهم
		قطـــر	٨ ريالات
		انجلترا	١٢٥ بنى
		فرنسا	١٠ فرنك
		المانيا	٥ مارك
		كندا امريكا	٣٠٠ سنت
		البرازيل	٤٠٠ كروزيرو
		نيويورك/نيوجرسى	٣٥٠ سنتا
		لوس انجلوس	٤٠٠ سنت
		استراليا	٤٠٠ سنت

فى الخارج

إيطاليا	٢٠٠٠ ليرة
هولندا	٥ فلورين
باكستان	٣٥ ليرة
سويسرا	٤ فلورن
اليونان	١٠٠ روبية
النمسا	٤٠ شلن
الدنمارك	١٥ كراخمة
السويد	١٥ شلن
الهند	٣٥٠ كرون

الغلاف : للفنان بريس داڤين

« القاهرة القديمة ـ قرب باب الخلق ـ القرن ١٩ »

الملكية : محمد عفت

إلى بهـــاء طـاهـــر

الذى استحضر بفنه ذاكرة مصر العميقة .
وحدانى وُدُّهُ لنشر هذا الكتاب .

★ ★ ★

* « النشـر إحيـاء الميت كـالنشـور والإنشار .
وانتشار الورق : إيراق الشجر .
والمنشور الرجل المنتشر الامـر ،
ومـا كان غيـر مختـوم من كتب السلطان » . الفيروزابادى

جنيف سنة ١٩٩١ من القاهرة سنة ١٩٥٨

ا . ل

■ تمهـــــيد ■

إدريس أفنـــدى (١٨٠٧ ـ ١٨٧٩)

مـؤرخ أهمـله التـاريخ

لا أعرف مؤرخا مصريا ممن عرضوا لحياة مصر في القرن الماضي تحدث عن « إدريس أفندى » أو اشار إليه ، وإدريس افندى مع ذلك شخصية فذة هامة . لا للدور الذى اداه فى سلك الوظائف الحكومية ، وإن يكن تقلب فيها سبع سنين بين التدريس والهندسة وبين القاهرة ودمياط ، بل لنشاطه الخصب فى ميدان التاريخ المصرى ، وما ترك من لوحات ومؤلفات ممتازة تجلو روائع ماضينا ، ومن مذكرات صريحة تصور حياتنا الاجتماعية ، وتلقى الضوء على اسرار الحكم والسياسة التى اثرت فى مصير مصر الحديث .

وما زالت اوراق كثيرة مما كتب إدريس افندى مخطوطة لم تنشر حتى اليوم ، تحفظها دار الكتب الفرنسية بباريس . وهى التى نقدم مختارات منها فى الصفحات التالية .

فَمَنْ إدريس افندى هذا الذى اهمله التاريخ الرسمى ؟

رجل ذكى مثقف يحصل العلم ويذيعه ، دون ان يكل عزمه او يفتر إزاء ما يلقى من صعاب ، رجل كريم الطبع ، كبير الإباء ، شديد العريكة ، يعرف قدر نفسه ، ويعتد بحريته قبل كل شىء . وهذه كلها صفات اهلته بجدارة لأن يعيش مغموراً ، وان يموت فقيراً ، وقضت عليه بان يهمله التاريخ الرسمى . فلو كان يتقن فن التملق والزلفى والمداهنة إلى جانب ما اتقن من فنون ، ولو كان يحسن الطاعة والإغضاء ، ويعرف كيف يخفض جناح اللين للسادة ، إذن لراى الرضا ، وترقى من رتبة إلى رتبة ، ووصل فى ركاب ذلك العهد إلى المنصب العالى ، والثراء العريض ، والمكان العزيز فى التاريخ الرسمى .

يعيدنا إدريس أفندى إلى ذلك العهد الذى بدأ فى مصر يتولى محمد على ، واتصل بتعاقب خلفائه من بعده . وقد عاصر إدريس خمسة من اولئك الولاة : محمد على ، وإبراهيم ، وعباس ، وسعيد ، وإسماعيل ؛ وعرف الاسرة الوالية من قريب معرفة مباشرة . إذ اتخذه إبراهيم مربياً لأولاده ايام محمد على .

* * *

وحياة « إدريسنا » هذا قصة طريفة لا يعوز راويها ان يلجأ إلى الصنعة ووسائل التشويق لاجتذاب القارىء . فهى قصة تكفى وقائعها إثارة شغفنا واهتمامنا إذا سردت سردا . وهى تجرى على ارض مصر الإفريقية ، ولكنها تجرى ايضاً على ارض اوروبا وآسية . وهى تمتد فى الزمان اثنتين وسبعين سنة منذ ان ولد بطل القصة عام ١٨٠٧ حتى توفى عام ١٨٧٩ .

وقد ولد بطل القصة فى فرنسا ، فى إقليم الفلاندر ، ولم يسمه ابوه « إدريس » ، فقد كان من اسرة انجليزية الأصل هاجرت إلى فرنسا فراراً من جور الملك شارل الثانى . بل عرف صاحبنا باسم پريس دافين (Prisse d'Avennes) ، وهو تحريف للاسم الانجليزى پرايس اوف ايفن (Price of Aven) . وكان ابوه مفتشاً لغلبات الأمير تاليران ، لقى الموت عام ١٨١٤ ، إذ تطوع لتمريض جنود نابليون المصابين بالتيفوس ، فقضت عليه العدوى . ودخل الفتى عام ١٨٢٢ ـ بعد دراساته الأولى ـ مدرسة الفنون والصنائع بشالون ، وتخرج فيها عام ١٨٢٥ بإجازة المهندس المعمارى ، وهو فى التاسعة عشرة من عمره . واصغى إلى ما هتف فى صدره من طموح الشباب وحب المغامرة ، فمضى يحارب فى صفوف ثوار اليونان فى العام التالى . ومن هناك أبحر إلى الهند حيث اصبح سكرتيراً لحاكمها العام . ثم نراه بعد ذلك بقليل فى فلسطين .

ويبلغه حديث محمد على وحاجته إلى الإخصائيين الأوروبيين يستعين بهم لتنظيم الجيش والمدارس وتنفيذ مشروعات الرى والزراعة ، فتصور له آماله وحميته انه سيجد على ضفاف النيل ـ تلك الأرض البكر التى ينشدها ليؤدى فيها طاقته ، ويدرك ثمرة جهده ، ـ كل ما يصبو إليه من رغد العيش ، وشرف المنصب ، والجاه الذى ينتظر العاملين فى عزم وإقدام .

وها هو ذا يلتحق بخدمة « الباشا » عام ١٨٢٩ ، فيعينه مهندساً للرى ، ثم استاذاً للطبوغرافية فى مدرسة اركان الحرب بالخانكة ، وفى الوقت نفسه مربياً لابناء إبراهيم . وإذ ذاك يقدم للوالى « مذكرة فى اهم الاعمال التى يمكن تنفيذها فى الدلتا » ، ومن بينها حفر ترعة تمتد من الاسكندرية إلى القاهرة ، وإنشاء جسر معلق على النيل بين جزيرة الروضة وحدائق إبراهيم .

هكذا تبدأ القصة بداية سعيدة : فالايام تبتسم لصاحبنا ، وتعده خير الوعود . ولقد غدا يشق طريقاً ناجحاً موفقاً بفضل ذكائه ، وقريحته الفطنة إلى الحياة العملية ، ومثابرته الشديدة . ولكنه بالرغم من هذا كله ـ او لهذا كله ـ لا يلبث حتى يصطدم هو وعبد الله « بك » ناظر مدرسة الخانكة . وقد روى ابنه تلك الحادثة ، قال :

« ذات صباح ـ وكان ذلك يوم ٢١ من يولية سنة ١٨٢٩ ـ ارسل « عبد الله بك » رئيس المعسكر فى طلبه وكلفه طبع موسيقى الكتائب نظراً لمعارفه الخاصة ، ولعدم وجود من يقوم بهذا العمل ؛ فرفض بريس محتجاً بان هذه المهمة لا تدخل فى دائرة اختصاصه . فغمره فى الحال سيل من الشتائم البذيئة ، وصدر الامر بان يكبل بالحديد إلى ان يعدل عن رايه ويمتثل . ولما ظل رابط الجاش ولم تؤثر فيه جميع تلك التهديدات ، احتد غضب « البك » ، واصدر امراً همجيا بجلده بالكرباج .. وعاد بريس إلى بيته ، فارسل استقالته إلى نظارة الحربية ، ثم وضع فى حزامه خنجراً ومسدسين ، ومضى يحمل بنفسه استقالته إلى « البك » . وإذ دخل عليه القاها تحت قدميه قائلا له : إنه بهذه الاستقالة التى ارسل منها نسخة إلى القاهرة قد استرد حريته ، وإنه خليق بان يرميه بالرصاص فى راسه دون ان يستطيع واحد من حرسه ان يمنعه ، إذا هو حاول ـ وإن كان ناظراً ـ ان يعتدى عليه . وشده الناظر فلم يجر جواباً ، أما بريس فامتطى حصانه ، وبلغ نظارة الحربية حيث اعتذر إليه المسئولون » .

غير ان تصرفاً من هذا القبيل لم يكن من شانه فى ذلك العهد ان يفتح سبيل التقدم والترقية امامه ، ولا ان يحقق له ما كان ينشد على ضفاف النيل من رغد المستقبل ، وشرف المنصب ، والجاه الذى يكافىء جهد العاملين فى عزم وإقدام . منذ ذلك اليوم ، انخفض نجم بريس فى سماء مصر . نقلوه إلى دمياط استاذا للتحصينات فى مدرسة المشاة . ولكن

همته لم تفتر ، بل راح يستطلع شمالي الدلتا ، لا سيما منطقة بحيرة المنزلة ، ووضع « مذكرة في تجفيف بحيرات مصر السفلى وزراعتها » قدمها كبير الرجاء إلى الوالي ، إلا انها لم تجد حظوة لدى جنابه العالي .. ولا نعلم من امر بريس في السنوات التالية إلا ما بذل من نفسه للمرضى والمصابين في وباءى الكوليرا والطاعون اللذين فتكا بمصر عام ١٨٣١ وعام ١٨٣٤ ، فقد نهكه العناء حتى اشرف به على الموت .

هناك خالط الشعب المريض الجائع البائس ، وفهم نفوس المصريين ، ولمس تحت الأسمال التي القاها عليهم الحاضر الوخم تلك الصفات الكريمة العريقة التي سجلتها حضارتهم من قديم . واقبل عليهم في شغف ، فتعمق مجتمعهم ، ودرس تفاصيل حياتهم ، واتقن لغتهم . ودعاه الجميع باسمه الذي تحول من « بريس » إلى « إدريس » : « إدريس افندى » .

ودفع إدريس افندى اهتمامه بحضارة هذا الشعب إلى دراسة الهيروغليفية ، وكان شامبليون قد حل رموزها منذ سنوات قليلة . وملات حياة المصريين حياته ؛ فهو يفكر في ماضيهم كما يفكر في حاضرهم وفي مستقبلهم . وما باله يظل محدودا بواجب ضيق صغير ؟ إن الإنسانية اعرض من ان يربطها سلك الوظيفة الرسمية . وإنه ليزهد في هندسة الرى الحكومية وتدريس علم عقيم ، فيقدم استقالته عام ١٨٣٦ ، ليفرغ إلى ما بات يستغرقه من التاريخ لهذا المجتمع الذي يعيش فيه .

* * *

ها هو ذا في زيه العربي ينتقل بين الفلاحين من قرية إلى قرية ، ومن الدلتا إلى الصعيد ، ومن الصعيد إلى النوبة . ها هو ذا يقف مبهوراً امام بوابة ابي سنبل الراشعة . وها هو ذا في عام ١٨٣٨ يستقر في الاقصر ، موجهاً جهوده إلى دراسة منطقة « طيبة » . أو يستقر حقا ؟ إنما حياته في تلك الأثناء نضال متصل كل يوم ضد عجرفة المدير ، وتسلط موظفي الباشا ، واستشراء عصابات اللصوص . ولكنه يحب العراك والكفاح والعيش في خطر . عليه إذن ان يحمي نفسه ، ويحمي رحاله ، بل ويحمي تلك الآثار العريقة من معمل البارود الذي أنشاه الباشا بالكرنك .

ولم يكن بد من ان يلتحم هو والسلطة الغشوم مرة اخرى ، في مارس ١٨٤١ : فقد قبض ناظر الاقصر على واحد من رجاله بغير وجه حق ،

To: www.al-mostafa.com

وامر بضربه بالعصا ، ورفض إطلاق سراحه ، فاحتد « إدريس افندى » ، وضرب الناظر . وهنا تقوم قيامة الناظر التركى وخفره ، ونترك لابن إدريس افندى إتمام رواية الواقعة ، فهو يقول :

« على الرغم من انه كان بمفرده ضدهم جميعاً ، فقد افلح فى ان يذود عنه اولئك الذين اخذوا بتلابيبه ، إذ ضربهم فى وجوههم بقبضة يده ، ولكنهم تكاثروا عليه بعد ذلك من كل جانب . وحين هوت عليه العصا الاولى أمسك عن استخدام سلاحه . غير ان العِصِىَ تتابعت بلا انقطاع ، فبدد وقعها صوت ضميره المتردد ، واندفع شاهراً خنجره على ذلك التعس الذى ضربه فى تلك اللحظة ، فجرحه جرحاً بليغاً ، واصاب اثنين آخرين إصابة أهون . وإذ ذاك هجم عليه الجميع ، وكبلوه ، وامر الناظر بحبسه . وبينما هم يكبلونه ، اتى لنجدته ـ بمجرد ان بلغه الامر ـ فرنسى سائح كان يقيم عنده اياماً ، هو « الكونت دى فرجين » . فطوقوه فى الحال ، وسحبوه من لحيته إلى السجن . حيث وصل دامى الجسم ، هو والخدم الثلاثة الذين كانوا فى صحبته . ثم قيدوهم جميعاً بالسلاسل » .

وفى قاع ذلك السجن المظلم ، ظل إدريس افندى وضيفه ورجالهما اربعة أيام واربع ليال ، وسط الاوساخ العفنة التى اختلطت بتراب الارض ، لا يبلغهم نور ولا هواء ، بل لا كسرة من خبز ولا جرعة من ماء ، مشاطرين فى هذا كله بلاء نحو من عشرين فلاحاً فقيراً ، لم يكن لهم من ذنب إلا فقرهم الذى لم يختاروه وعجزهم عن دفع الضرائب للباشا . ولولا توسط الرسام « نستور لوت » ، معاون شامپليون فى دراسة الآثار ، وقد اقبل فى مهمة رسمية ، ما افرج عنهم .

ويزعم الاديب الفرنسى ماكسيم دوكان Maxime du Camp الذى زار مصر فى ذلك العهد وعرف إدريس افندى ان إدريس افندى قد انكسر فى هذه الوقعة فكه وإحدى ذراعيه .

ونحن نشك فى صدق رواية ماكسيم دوكان ، فهو شخص مشهور فى الادب الفرنسى بنفسية خاصة تنحرف به إلى المبالغة والتهويل وتشويه الحقيقة فى سبيل التاثير على القارىء ، ولكن الذى لا شك فيه هو ان إدريس افندى ظل فى الاقصر مرفوع الراس يواصل ابحاثه بعزيمته المعهودة التى لا تنثنى ولا تكل .

وقد ادت ابحاثه في تلك الفترة بين سنة ١٨٣٩ وسنة ١٨٤٣ إلى نتائج يعرف مؤرخو الآثار المصرية اهميتها . فقد يكفيه فضلا انه حفظ بعض آثار « طيبة » العريقة من الفناء . وكيف كان ذلك ؟ ذات يوم ، لمس حاجة طرات على معمل البارود بالكرنك ، اقبل العمال يقتطعون الاحجار من الاعمدة الضخمة القائمة في جنوب الهيكل الجليل ، اعمدة « حار محب » التي كانت تعرف إذ ذاك باسم « اعمدة حوريس » .

وكان إدريس الفذى اول من لاحظ النقوش الممتازة الفريدة المنحوتة عليها من عهد اخناتون ، ووجه إليها بالفعل نظر الرسام نستور لوت .. وهو يكتب (في يناير سنة ١٨٤٠) لعالم الآثار الانجليزى ويلكنسون عما حل بها فيقول :

« كانت الاحجار المستخدمة في ذلك الجزء من العمود ضخمة الحجم ، فلاختصار العمل عمدوا في تكسيرها إلى استعمال البارود . وحين وصلت إلى المكان ، كانوا يتاهبون لإشعال بعض الذبالات . فاستمهلتهم لحظات ريثما ارسم أبا هول منحوتاً على كتلة طولها متران تقريباً وقد غمرته اشعة « اتون رع » . ولم اكد اتم رسمي حتى تطاير الحجر شظايا ؛ ولكن لحسن الحظ بقي راس ذلك الفرعون المعبر ـ وإن كان قد تشقق ـ على قدر من السلامة اتاح لي ان اطبعه على عجينة من الورق استعنت بها بعد ذلك في تهذيب رسمي على مهل » .

وقد يكفيه فضلا بين علماء الآثار المصرية انه كشف في معبد « خونسو » اثنتى عشرة غرفة . وانه كشف البردية الهيراطيقية التي تحمل اليوم اسم بردية « پريس داڤين » . ولكنه لم يقف اعماله في ذلك الميدان عند هذا الحد . بل واصل ابحاثه في شغف ومثابرة دائماً .

كان الصعيدى العريق رفاعة الطهطاوى على إثر عودته من بعثته في فرنسا ، حيث اقام خمس سنين ايقظ فيه خلالها حنينُه إلى بلده واطلاعه على اوجه الحضارة الجديدة وعياً وطنيا متاججاً مستنيراً . قد طالب محمد علي بحماية آثار مصر القديمة . فصدق الوالي على امر صاغه رفاعة ينص على منع التصرف في الآثار . غير ان الوالي في حاجة إلى احجار لبناء معامل السكر من ناحية ولتموين معامل البارود من ناحية اخرى . فيفرض على الفلاحين ان يقدموا له عن كل فدان مزروع قنطاراً من الأحجار . ولا باس على فلاحي الصعيد من ان يقتطعوا له الاحجار من

هذه الأعمدة الضخمة والتماثيل الكثيرة التى تملأ منطقتهم ؛ فتلك أحجار مشذبة أصلح للبناء وأقرب منالا من بطون الجبال ! بل كان رجال الإدارة فى الحالات العاجلة يسوقون الفلاحين إليها لتكسير ما تحتاج إليه معامل الباشا . ويرتاع لذلك علماء الآثار فى أوروبا ، فيكتب ويلكنسون فى لهفة لإدريس افندى يسأله « معلومات عن التهديم الذى حدث فى الكرنك » ويرجوه أن يبادر ليرسم « إذا لم يكن قد فات الأوان ، أساطير الفراعين القدماء التى يقال إنها تكسو الأحجار المستخدمة فى هذه المعالم » ، ويهرع ليبسيوس على رأس بعثة بروسية كانت قد اجتثت منذ سنوات روائع النقوش والرسوم من جدران مقبرة سيتى الأول بوادى الملوك ونقلتها إلى برلين ، وهو يهرع هذه المرة لينقل « غرفة الملوك » الشهيرة فى الكرنك (من آثار تحوتمس الثالث) ، فيسبقه إدريس افندى بأيام ، ويبذل اعنف الجهد حتى يفصل أحجارها ، ويحملها إلى باريس حيث يحفظها متحف اللوفر .

* * *

ويعود إدريس افندى إلى مصر عام ١٨٥٨ ، أى فى اثناء ولاية سعيد ، فيجوب البلاد من جديد مسجلا مشاهداته وملاحظاته ، مصوراً المعالم والآثار بالآلة الفوتوغرافية ، او راسماً إياها بقلمه وألوانه ، او صانعاً لها قوالب متقنة ، حتى يجتمع له من ذلك كله محصول ثمين من المعلومات الجغرافية والبشرية والتاريخية والفنية واللغوية والاجتماعية ، مادة غزيرة هى التى استمد منها فيما بعد كتبه القيمة عن الآثار المصرية ، وغذّى بها الصحف والمجموعات الكثيرة التى راح ينشرها للتعريف بمصر .

وقد وقف أيامه وجهده على هذه المهمة التى غمرته واستغرقته . عرضت عليه الحكومة الفرنسية منصب السفير فى تركيا ، فاعتذر مؤثراً مواصلة منشوراته ومطبوعاته التى لم تكن لتمنحه مثل جاه السفير ومرتبه . وإنها لتضحية تعرفها له مصر اليوم . وقد اصبحت كتبه عن الفن نادرة جدا ، وفى مقدمتها كتاب « الآثار المصرية » (Les Monuments Egyptiens) الذى يضم خمسين لوحة من القطع الكبير ، ويعتبر مكملا لكتاب شامبليون الذى ظهر عام ١٨٤٥ بعنوان « آثار مصر والنوبة » Mouments de l'Egyptc et de la Nubic. أما « تاريخ الفن المصرى »

ماخوذاً عن الآثار ، منذ أقدم العصور إلى الحكم الرومانى ، Histoire de l'Art Egyptien d'Après les monuments, depuis les temps les plus reculés jusqu' à la domination romaine. فهو « أطلس » رائع يضم فى مجلدين مائة وستين لوحة من القطع الكبر . وله اطلس اخر من مائتى لوحة فى ثلاثة اجزاء عنوانه « الفن العربى » ، ماخوذاً عن آثار القاهرة منذ القرن السابع حتى نهاية القرن الثامن عشر .
(l'Art Arabe, d'après les Monuments du Caire depuis VII^e siècle jusqu' à la fin du XVII^e siècle.)

إن دراسة الآثار المصرية والعربية التى كانت تحبو فى ذلك الوقت ، مدينة لهذا العالم الفنان بتقدمها خطوات موفقة إلى الامام : فرسوم شامپليون واعوانه كانت رسوماً مجردة ، فاترة ، هندسية ، لا تؤدى إلا الخطوط والأبعاد والأحجام . اما رسوم إدريس افندى او پريس داڤين فقد بعثت الحياة النابضة الملونة فى الماضى السحيق واضافت إلى صوره المعروفة صوراً مجهولة .

ولم يهتم بالآثار العربية قبل إدريس افندى او پريس داڤين إلا مهندس معمارى من اهل مرسيليا سبقه إلى زيارة مصر ويدعى « پاسكال كوست » رسم فى دقة موضوعية جافة أيضاً عمارة الفاطميين والأيوبيين والمماليك ، ولكن إدريس افندى او پريس داڤين نظر من بعده إلى المساجد والزخرفات والاثاث نظرة إنسانية جلتها فى مظهرها ذلك الأليف القريب من نفسه .

واما مقالات إدريس افندى او پريس داڤين وابحاثه الكثيرة فى الصحف والمجلات والمجموعات الدورية فيضيق هذا المقام عن الإحاطة بها : ففى هذا كله انفق الرجل حياته . واضطرت زوجته إلى أن تبيع بعض الانجليز جزءاً كبيراً من مخطوطاته واوراقه ورسومه ومكتبته الثمينة . وهو على فراش الموت لا يدرى ماذا يدور من حوله .

ولعل أهم أوراقه مع ذلك هى التى بقيت فى فرنسا ، وآلت إلى دار الكتب بباريس ، أوراق يضمها اثنا عشر مجلداً ، وتتصل بدراسة مصر من مختلف النواحى . وقد استوقفتنا بين هذه الأوراق بوجه خاص ثلاثة مجلدات ضخمة ، يبلغ كل منها نحو أربعمائة صفحة ، تحوى كثيراً من قصاصات الجرائد المعاصرة ، وكثيراً من الصفحات المخطوطة . وكثيراً

من الرسوم ، واحدها بعنوان « سياسة مصر الحديثة وإدارتها » (Politique et administration de l'Egypte moderne) والآخران بعنوان « اخلاق وعادات » (Moeurs et coutumes) .

ويتضح للناظر في هذه المجموعة الكثيفة التي تتناول وصف مصر الحديثة ، انها المادة الاولية التي اعدها إدريس افندى لإنشاء كتاب جامع عن مصر كما عرفها . ونحن نجد بالفعل مشروع ذلك الكتاب وخطته في الصفحات الاولى من احد هذه المجلدات . وتنبئنا تلك القائمة للموضوعات بأن المؤلف قد انتوى تصنيف كتاب كبير من عدة أبواب وفصول :

فالباب الاول عن « القطر » وينقسم إلى فصل عن « المناخ » ، وفصل عن القاهرة والاسكندرية ، وفصل عن مجرى النيل ، وفصل عنوانه « مصر كما هي » .

والباب الثاني عن « الناس » ، يفتتحه فصل عن سكان مصر والأجناس التي اختلطت على هذه الأرض ، يليه فصل عن النساء المصريات ، ثم فصل عن الرجال وقناعة الشعب ودفع الضريبة بالعصا ، ثم فصل عن الفلاحين والصناع وفصل عن الأوروبيين في مصر .

والباب الرابع وصف للأسرة والزواج والحياة العائلية .

والباب الخامس عن « الحكومة والإدارة » فيه فصل عن الحكومة ، اى النظار والموظفين ، وفصل عن التقسيم الإدارى ، وفصل عن العدالة المفقودة ، وفصل عن الجيش والبحرية والتجنيد ، وفصل عن التعليم .

وهناك باب سادس عن الدين ، اى الإسلام والمسيحية .

وباب سابع عن المالية والضرائب وميزانية الإيرادات والمصروفات والديون التي تورط فيها إسماعيل .

ثم باب اخير عن الوالى ينقسم إلى فصل عن حياته الخاصة ، وفصل عن حياته العامة وسياسته الخارجية والداخلية .

* * *

في هذا الاستعراض العاجل لعناصر الكتاب الذى اعد مادته إدريس افندى ولم يفرغه في قالبه الأخير ما يصور لنا مدى غزارة ما تحويه تلك الأوراق الشعثاء . وقد اخترنا من بين تلك الأوراق المخطوطة صفحات طريفة عن المجتمع المصرى وولاة مصر في القرن الماضي . صفحات

مطوية لم يتح لها ان تنشر حتى اليوم لاسباب كثيرة لعل في مقدمتها تلك الصراحة التي تحدث فيها إدريس افندى عن اسرة محمد على ، وتلك الجراة فى إذاعة اسرار القصور العامرة بالوان المجون والحماقة والسرف .

ومن هنا كانت مذكرات إدريس افندى تختلف عن كتب المؤرخين الرسميين ، بل تعارضها فى اغلب الاحيان . ولقد كان هذا الرجل الحر المستقل يعى ما تؤدى إليه مدائح الاقلام المرتزقة من تشويه الحقيقة فى التاريخ ، ولذلك توخى دائماً ذكر الوقائع ، ووصف العصر والقصر وصف شاهد عيان .

ولكل شاهد عيان موضع خاص يقف فيه ليرصد الاحداث والاشخاص والاشياء . وقد رأينا كيف تنقل إدريس افندى سبعة عشر عاماً فى مصر من اقصاها إلى اقصاها ، ومن بيئة « الباشوات » الحاكمين إلى بيئة الشعب المحكوم .

كيف عرف اهل القصور والدواوين من ناحية ، وكيف عاش بين اهل الدلتا والصعيد من ناحية اخرى ، ناظراً هنا وهناك ببصيرة الباحثة الناقد ، مشاطراً اهل الوادى حياتهم ، مصطدماً بالسلطة الغشوم كلما مست حريته واستقلاله وكرامته . نظرته إذن هى نظرة الدارس الممحص ، والاخ العاطف على إخوة له فى الإنسانية جار عليهم الدهر ، والرجل الواقف بالمرصاد لرذائل السلطان المستبد .

ولهذا كله كانت مذكرات إدريس افندى وثيقة تاريخية قيمة للمهتمين بحياة مصر الحديثة . وهى إن لم تكن تاريخاً كاملا لقرننا التاسع عشر ، فإنها تدعونا إلى إعادة النظر فيه وكتابته بأقلام واعية محققة مخلصة للعلم وللوطن ، لا كما كتبته اقلام ناعمة معطرة لحساب اسرة اجنبية عاثت فى بلادنا فساداً ، وضيعت حقوقنا بين دول العالم ، وسخرت ابناءنا سخرة العبيد .

وفى مذكرات إدريس افندى ـ فضلا عن قيمتها التاريخية ـ طلاوة القصة ، ودقة الملاحظة ، وصدق التصوير والالوان ، وشجون الحديث والالفة والخبرة والثقافة ، وسعة الافق الإنسانى ، وإحساس مرهف بالحياة الكامنة فى تفاصيل مجتمعنا المصرى ، وفهم عميق لروحنا القومى الأصيل الذى نحيى اليوم بعثه ، وانطلاقة من إساره ، وتوثبه إلى افق الحرية والكرامة الموفورة .

وإذا اجتمعت هذه الصفات او شيء منها في اوراق مخطوطة مطوية مهملة ، كان ذلك خليقا بان يخرجها إلى النور .

لقد انصف إدريس افندى مصر ، فمن حقه عليها ان تنصفه .

■ ■ ■

نشرت صفحات من هذا الكتاب في مقالات الدكتور انور لوقا التالية :

— « إدريس افندى مؤرخ اهمله التاريخ » . المجلة ، عدد ١٥ مارس ١٩٥٨ ، ص ٤٧ ـ ٥٩ .

— « إدريس افندى وظالم باشا » . الهلال ، عدد ١١/٦٦ ، نوفمبر ١٩٥٨ ، ص ٦ ـ ١٥ .

— « من مذكرات إدريس افندى : محمد على واسرته صفحات مجهولة » . المجلة ، عدد ٩٣ ، سبتمبر ١٩٦٤ ، ص ١٢ ـ ٢٦ .

دار مصرية من الداخل ـــ لوحة

منشورة فى كتاب إدريس افندى ـ الفن العربى

تقـــــديـم :

إدريـس أفنـدى وظـالم بـاشـا

« إدريس أفندى » مستشرق فرنسى يكاد يكون مجهولا من الكثيرين ، برغم مواقفه المجيدة وكتاباته الجريئة وفنه البارع ، بل لعله ظل مغمورا لأنه انفق حياته فى البحث عن فنون حضارتنا العريقة ! ولد عام ١٨٠٧ ، فى مقاطعة الفلاندر بفرنسا . ولم يسمه ابوه « إدريس » إذ كان من اسرة انجليزية الأصل هاجرت إلى فرنسا فرارا من جور الملك « شارل الثانى » ، بل عرف باسم « بريس دافين » Prisse d'Avennes وهو تحريف فرنسى للاسم الانجليزى Price of Aven وكان ابوه مفتشا للغابات التى يملكها الأمير تاليران . وحين اصيب جنود نابليون الذين دوخوا اوربا ، بالتيفود عام ١٨١٤ ، تطوع الأب لتمريض إحدى الفرق ، فقضت عليه العدوى .

* * *

وفى عام ١٨٢٢ دخل : بريس مدرسة الفنون والصنائع بمدينة « شالون » ، وتخرج فى التاسعة عشرة من عمره مهندسا معماريا . وكانت مغامرات نابليون قد غيرت مفهوم الحدود الجغرافية فى مخيلات الشباب ، فدفع الطموح صاحبنا إلى الانخراط فى صفوف ثوار اليونان الذين نهضوا ينتزعون استقلالهم من جيوش السلطان وإبراهيم باشا .

* * *

ثم ابحر إلى الهند حيث عمل سكرتيرا لحاكمها العام . وعاد بعد ذلك بقليل إلى فلسطين . وهناك بلغه أن « محمد على » فى حاجة إلى اخصائيين اوربيين لتنظيم الجيش والمدارس وتنفيذ مشروعات الرى والزراعة ، فالتحق بخدمة الباشا عام ١٨٢٩ ، مهندسا للرى فى اول الأمر ، ثم استاذا للطبوغرافية فى مدرسة اركان الحرب بالخانكة ، وفى الوقت نفسه مربيا لابناء إبراهيم .

ولكنه لم يلبث ، لاعتداده بنفسه ، ولشدة ابائه وشممه ، أن اصطدم بناظر المدرسة التركى المتغطرس « عبد الله بك » . وبعد ملحمة عنيفة هوى فيها الكرباج على جسمه ، فابرز خنجره ومسدسه متحديا القوة بالقوة ، قدم استقالته ، فنقله ناظر الحربية إلى دمياط ، استاذا للتحصينات فى مدرسة المشاة . وفتكت بمصر عام ١٨٣١ وعام ١٨٣٤ اوبئة الكوليرا والطاعون ، فانبرى « بريس » لتمريض المصابين وصارع الموت الذى اوشك أن يصرعه .

واغنت تلك التضحية نفس الرجل الكريم .. لقد عاشر شعبا مريضا جائعا بائسا ، وهو بعينه هذا الشعب الذى صنع الحضارة منذ فجر البشرية .. واحب « بريس » المصريين ، وفهم مشاكلهم ، وميز جوهر صفاتهم تحت الاسمال التى القاها عليهم الحاضر المظلم ، وتعمق مجتمعهم ، وتامل تفاصيل حياتهم ، وتكلم لغتهم ، واهتم بماضيهم ، وانغمر فى هذا كله حتى ضاقت على إنسانيته المتفتحة حدود الوظيفة الصغيرة . فاستقال عام ١٨٣٦ ، وتحرر من القيود الرسمية ، وتفرغ لدراسة الهيروغليفية ليجتلى تاريخ هذا المجتمع الذى يعيش فيه ، وكيف تطور من حال إلى حال .

وارتدى الزى الشرقى ، وسمى نفسه « إدريس » بدلا من « بريس » وجاب قرى مصر متنقلا من الدلتا إلى الصعيد ، بين الفلاحين الذين يانسون إليه ويلقبونه بـ « إدريس افندى » . وبعد زيارة « لابى سنبل » اقام فى الاقصر لدراسة « طيبة » ، ولحماية

ما امكن من اعمدة الكرنك التى اقبل عمال الباشا يكسرونها لتغذية معمل البارود . ولم يكن بد ـ وهو رجل شديد العريكة حريص على كرامته دائما ـ من ان يصطدم مرة اخرى ، بناظر الاقصر التركى وخفره .

لقد ادت ابحاث « إدريس افندى » فى التاريخ المصرى القديم وفى تاريخ العمارة العربية إلى نتائج كبيرة يعرف المختصون اهميتها ، ودورها فى تقديم تلك الدراسات . وإذا لم يتسع المقام هنا لعرضها ، فحسبنا ان نشير إلى « الالبومات » الضخمة الثمينة التى سجل فيها الفنان بالرسوم الدقيقة والالوان المتقنة روائع الفن المصرى خلال مختلف العصور . وجمع « إدريس افندى طوال السبعة عشر عاما التى انفقها على ضفاف النيل ـ وكان قد سافر إلى باريس اثناء حكم عباس وعاد بعد تولى سعيد ـ مادة غزيرة عن مصر الحديثة ، استمد منها المقالات التى راح ينشرها فى الصحف والمجموعات العلمية ، مؤثرا مواصلة منشوراته ومطبوعاته على منصب سفير فرنسا فى تركيا ، الذى يقال ان حكومة نابليون الثالث عرضته عليه . وحينما اشتد عليه المرض فى فرنسا عام ١٨٧٩ ، اضطرت زوجته إلى ان تبيع لبعض الانجليز جانبا من مخطوطاته واوراقه ورسومه ومجلدات مكتبته النادرة .

* * *

على ان اهم اوراقه بلا شك هى التى بقيت فى فرنسا ، وآلت إلى قسم المخطوطات بدار الكتب بباريس . هناك اثنا عشر مجلدا خلفها « بريس دافين » ، تتناول دراسة مصر من مختلف النواحى . وقد طالعت بين هذه الأوراق بوجه خاص ثلاثة مجلدات ، يحوى كل منها نحو اربعمائة صفحة ، وتضم خليطا من الرسوم والمذكرات المخطوطة وقصاصات الجرائد المعاصرة ، ويحمل احدها عنوان « سياسة مصر الحديثة وإدارتها » والآخر عنوان « عادات واخلاق » . ويتضح للناظر فى هذه المجموعة الشعثاء انها المادة

الأولية التى أعدها « إدريس أفندى » لإنشاء كتاب مفصل عن مصر كما عرفها ، ولكن الأيام لم تمهله حتى يفرغه فى قالبه الأخير .

ولن نناقش هنا فكرة هذا الكتاب الضخم الذى لم يكتبه صاحبه وحسبنا أن نعى ما سجله هذا الرجل الحر المستقل من اسرار الولاة الذين عاصرهم وعاشرهم ، فقد اتصل بهم ـ من محمد على إلى إسماعيل ـ ووصف اساليب حكمهم وخفايا حياتهم وصف شاهد عيان .

ويتميز حكم « محمد على » فى مذكرات « إدريس أفندى » بطابع القسوة والظلم والإرهاب . فإن منظر تعذيب أفراد الشعب تعذيبا رسميا منظما كان يتكرر فى كل يوم ، فى كل قرية ، وفى كل مدينة ، بل وفى أسواق القاهرة . وقد صور « إدريس أفندى » موكب « المحتسب » وعدالته الهمجية فى هذه السطور :

« يطوف المحتسب ، وهو الأغا المكلف بالإشراف على الأسواق ، بالمدينة على صهوة جواده ، يتقدمه « القواسون » حاملين ميزانا ضخما ، ويكتنفه ويتبعه منفذو أحكامه وخدم عديدون مسلحون « بالكرابيج » أو بالعصى الكبيرة ، فيستعرض الموازين ، واثقال الوزن التى يستخدمها الباعة ، ممتحنا من يختاره أو تختاره المصادفة . وقد يستجوب الخدم الذين اشتروا شيئا من المواد الغذائية ، ليعلم الثمن الذى دفعوه ، والوزن الذى أعطى لهم ، ومن أى بائع كان ذلك ، ثم يأمر بأن توزن أمامه المواد ، فإذا اتضح غش فى الوزن أو غلاء فى الثمن ، استقدم التاجر وأمر بضربه بالعصا فى الحال . فيقبض خدمه على المطفف ، ويطرحونه أرضا ويشدون ساقيه فى « الفلقة » ، ثم يوقع على بطن قدميه عدة منفذين مسلحين بالكرابيج مائتى أو ثلثمائة ضربة يعدها الأغا فى هدوء على حبات مسبحته الوردية . ويسأل المحكوم عليه العفو ، متوسلا بالنبى ، ثم بالأغا ، ثم بأولاده وهم أعز ما لديه . وفى نهاية الأمر ، لا يستطيع التاجر التعس ، وقد تمزقت قدماه ، أن يعود إلى دكانه

إلا محمولا أو متوكا على أذرع بعض أصدقائه أو بعض المتفرجين .. وتلك عدالة سريعة ناجزة ، ولكن لها عيوبها ، وتوقيع العقاب في أكثر الأحيان يوحيه التحيز . فإن لم يستغل الأغا سلطته المستبدة في ابتزاز الأموال أو اغتنام السلع ، فان قواسيه وخدمه يفعلون ذلك في أغلب الأحيان » .

ويتحدث عن تعذيب الفلاح ، فيقول :

« ان الفلاح المصرى ، وقد أبهظته الضرائب ، أصبح فريسة ضغط جميع موظفي الوالي ، من أعلاهم إلى أدناهم . فإذا كان الفلاح يملك قروشا ، طمع فيها هذا أو ذاك من طغاة المتسلطين عليه ، وأجبروه على دفعها ، فإذا قاوم كان جزاؤه الكرباج أو السجن . ولا يستطيع أى إجراء أن يفلته من العقاب البدني ، فهو عقاب مباشر ؛ وكل ما يستطيع أن يناله من تخفيف لا يتجاوز تقليل عدد الضربات التي توقع عليه » .

■ ■ ■

ثـــورة الصعـــيد

ويقول « إدريس أفندى » ان الفلاحين أطلقوا على محمد على لقب « ظالم باشا » لفرط ما نالهم من التعذيب على أيدى مأموريه ، فمن الكي بالقرميد الأحمر المحمى في النار إلى تسمير أذانهم ، إلى تمزيق أجسامهم بضرب الكرباج .

ويروى ثورة أهل الصعيد التي أدت إليها تلك القسوة : بدأت هذه الثورة على الوالي ورجاله في بلدة « دراو » في أوائل عام ١٨٢٤ . وكانت إحدى فرق الجيش في طريقها إذ ذاك إلى « سنار » فانضمت إلى الفلاحين . وبلغ عدد الثائرين نحو عشرين الفا . غير انهم تشتتوا بعد بضع معارك لعدم تنظيم صفوفهم تحت امرة قائد خبير .

وكان نزق الباشا وحده هو مصدر الظلم أحيانا . وإدريس يورد لنا هذا المثل على استبداد يشتط إلى حد عجيب :

« من بين النباتات النادرة التي وردت لمحمد على من أوربا ، كان غرس لزهرة الداليا . غرست تلك النبتة في قلب الأرض ، في موضع تغمره اشعة الشمس الساطعة بعيدا عن كشك الباشا الأثير ، فازهرت واينعت ، دون أن يتنبه السيد إليها . غير أن اجنبيا تحدث يوما عن جمال تلك الزهرة ، فلاحظ محمد على للمرة الأولى انها جميلة ، وأمر بان توضع النبتة في صندوق ، وتنقل تحت شجرة الجميز التي تظلل كشكه . وهنا اجترأ البستاني على الاعتراض بان الزهرة قد تموت من هذه العملية ، فقطب الوالي جبينه واقسم ان يدفن حيا ذلك الأرعن الذي تذوى على يديه هذه الزهرة التي استاثرت فجاة بإعجابه . وفي اليوم التالي كانت الداليا موضوعة بعناية في صندوق عريض في ظل الجميزة . ولكن الزهرة ، وقد اعتراها الذبول كانت قد إخذت تميل متراخية على ساقها الطويلة . فجيء بالبستاني ، وطرح أرضا ، وعلى الرغم من احتجاجه نالته ضربات عديدة بالسوط . فلما لم يسكت عن ترديد قوله بأن النبات لا يمكن أن يطيع الأوامر كما يطيعها الناس ، اخلى طرفه » .

■ ■ ■

ويتحدث إدريس افندى عن مكان القانون فى دولة محمد على ، فيقول :

« اننا نتورط فى الخطأ إذا قلنا ان فى ذهن الباشا افكارا منطقية عن العدالة وان فى قلبه حبا حقيقيا لها ، فالقانون الذى اذاعه محمد على ، والذى اطنب المطنبون فى الإشادة بحكمته وتمشيه مع روح الحرية ، لم يوضع يوما موضع التنفيذ . ويدعو الفلاحون محمد على باسم « ظالم باشا » . ولقد كانت تلك تضحية من ظالم باشا بصيته ، نزولا على مقتضيات مدح المادحين الذين حثوه على اتخاذه . ولذا سرعان ما اهمل القانون بعد تشريعه . وإذا كانت بعض اتجاهاته قد طبقت ، فإن ذلك لم يكن إلا فى مناسبات نادرة ، فى الأحوال التى لم تكن فيها مصالح الباشا المباشرة او غير المباشرة تقع تحت طائلة نصوصه » .

ويستطرد إدريس افندى قائلا : « ودون أن نستعرض تلك السلسلة من أعمال الطغيان التى عادت عليه بذلك اللقب ، حسبنا أن نلاحظ أن روح محمد على فى فرض الضرائب والنهب وعدم النزاهة فى ابتزاز المال روح لا نظير لها . انه لا يود أن يدفع مرتبات لأحد ، لا للجيش ولا للموظفين ولا للعمال ، ويود أن يدبر امره بحيث يخدمه الجميع مجانا ما استطاع إلى ذلك سبيلا . فالضباط المدنيون والحربيون ، والجنود والعمال يلاقون اشد العناء فى تحصيل مرتباتهم واجورهم ، وقلما يقبضونها نقودا ، بل يجدون انفسهم مرغمين فى أكثر الأحيان على أن يقبلوها سلعا خارجة من مصانع الباشا ، مرغمين بعد ذلك ـ للحصول على نقود ـ على أن يبيعوا بثمن بخس السلع التى حسبها عليهم الباشا بثمن باهظ » .

« ويكفى ذكر هذا المثل الملحوظ بين جميع ما تفتقت عنه حيلة محمد على فى سبيل النوال دون أن يفتح كيسه . وانه ليدل على خصب قريحته فى التلفيقات المالية : فبعد أن أخذ الأوربيون عكا ، رأى إبراهيم باشا تعذر الاحتفاظ بسورية إلى ابعد من ذلك الأمد ، فأرسل الأمر إلى جميع القوات بان تنسحب نحو مصر ، وان تدمر قبل رحيلها جميع ما يمكن ان يستخدم ضدها . وهكذا هدمت الحصون ومعامل البارود وأحرقت الخيام ، وكسرت المدافع ، ودمرت العتاد الذى كانت قد زودت به ، بل لقد ذهبوا إلى حد تكسير البنادق والسيوف التى يموت حاملوها من الجنود ، وعندما وصلت القوات إلى القاهرة قدرت جميع الخسائر التى أسفر عنه هذا الإجراء الذى نفذه المرءوسون صادعين بأمر رؤسائهم تقديرا دقيقا ، وظهر أن قيمتها تعادل حصيلة مرتبات فرق الجيش لمدة ستة أشهر ، وأراد الباشا خصم هذا المبلغ من مرتبات أولئك الرجال الذين قاسوا كل عناء ومشقة ، ولم يكن بد من أن يحتج سليمان باشا بشدة حتى يحول محمد على عن رايه العنيد ويقنعه بالعدول عن ذلك القرار الغريب » .

لقد رأى إدريس افندى فى وضوح أن « وضع واحترام النظم التى تكفل حماية الضعيف والمظلوم شىء يتناقض مع تلك الميول » ، ورأى محمد على يستوحى المثل القائل : « انما الشعب كالسمسم ، ينبغى أن تسحقه لكى تخرج منه الزيت » . ويعود إلى رثاء المصريين فى صفحة أخرى :

« أما المصريون ، شهداء الدولة ، فهم الألعوبة الدائمة فى أيدى رجال الإدارة ، أصحاب الأمر والنهى ، والتصرف فى قوم جهلة لا نصير لهم ولا خوف من شكواهم وتذمرهم . وهكذا يغش رجال الإدارة الزارع عند تقدير كمية ما تغل ارضه ، بموازين ومكاييل زائفة . وإذا حل أوان البيع قيل للفلاح دائما انه لم يجن إلا قطنا ردىء الصنف من الدرجة الثالثة . وفوق ذلك ، يستطيع عدد غفير

من الموظفين أن يطالبوه مرارا بدفع مبالغ من المال فإذا امتنع كان جزاؤه الضرب بالعصا وإذا اذعن ودفع فوراءه الكرباج ايضا لإرغامه على دفع مبالغ اكبر . وهم ياخذون الفلاح فى السخرة ، وبدلا من أن يدفعوا له أجره يقولون له ان قريته مدينة للحكومة ، وتلك شريعة التضامن ! .. وإذا ازداد رخاء المحصول فى عام ، ازداد بؤس المصريين لأن محمد على يقوم إذ ذاك بعمليات أوسع . فمثلا فى سنة ١٨٢٩ كان الشعب يموت من الجوع بينما كانت جبال من الغلال تحت امرة الباشا دون أن يكون للمصريين التعسين الإذن ولو بشراء شيء منها » .

وينتهى « إدريس افندى » إلى انه لا شك ان « محمد على » رجل فذ ، ولكن هل كان غرضه حقا هو سعادة مصر ومجدها » من الخطا أن يقال ان مصر قد تمدنت ، فهى لا يمكن أن تتمدن فجاة بهذه الصورة . انما المدنية محصول سلسلة من العمليات المتتابعة ، ولا يمكن ان تاتى ارتجالا فى ربع قرن ، وإذا لم ننظر إلا للنتائج فى تقدير الامور ، فإن المدنية تنتج رخاء مازالت مصر للاسف بعيدة من أن تحظى به .

لم يعرف محمد على فى حياته أى تربية أولّية ، فورطه فى الخطا اتخاذه من نفسه مثلا ، واتباعه غريزة السيطرة . بدا له انه مستطيع أن يصنع العلماء كما جند الجنود بمجرد قوة إرادته ، على حين انه لو تمشى مع طبيعة الاشياء لاستطاع ـ وكان ذلك اقصى ما يبلغه ـ أن يعد لأمته من بعده ، بمعاونة الاساليب الخاصة لكل فرع من الفروع ، فئة متخصصة من الشعب قادرة على أن تفهم النظريات وعلى أن تحاول تحقيقها . ولكنه لا يمكن ان يصنع اطباء ومهندسين من شبان لم يكتسبوا المعارف العديدة المجردة ، والاستعدادات الملائمة التى ينقلها إلى نفس المرء تعليم تمهيدى ينمى ملكات الصبا ، تلك الذخيرة التى لابد منها لطالب الدراسات العليا .

لقد قنع محمد على بانه جعل الصحف الاوربية تضج باسمه ، وانه اخضع الشعوب المحيطة به وارهب السلطان فى اسطنبول . وان الناظر إلى جميع الأعمال التى زخرت بها حياته ليرى واليا متلهفا إلى المجد لا مشرعا يضع اساس الرخاء الذى ينبغى ان يسود من بعده ، ولا مجددا يسعى إلى إقامة العدل وتشكيل مواطنين صالحين لاعمال السلم من ناحية ، مدربين على اساليب الدفاع من ناحية اخرى ، ولا وطنيا يبث حب الوطن فى نفوس الشعب ويشعرهم بان بلادهم عزيزة عليهم . هو يعمل دون ان يكون مستقبل الشعب هدفا له . وحكومته حكومة فردية لا تستمد قوتها وهيبتها إلا من شخصه » .

فهل سعدت مصر بعد زوال حكم محمد على ؟ لقد تعقب إدريس افندى خلفاءه على عرش مصر . عرف إبراهيم باشا معرفة مباشرة ، ووصف لنا همجيته وشراسته ، وأورد من الوقائع الثابتة ، المؤرخة ما يدحض آيات المديح التى رددها المؤرخون الرسميون . ثم تحدث إدريس عن سياسة عباس الغريبة ، وعن مباذل سعيد وإسماعيل .

ان مذكرات « إدريس افندى » إذن وثيقة خطيرة ، لابد من الرجوع إليها لتصحيح تاريخنا الحديث .. ولقد جمعت ـ فضلا عن سجل سرى لخفايا اسرة « ظالم باشا » ـ صفات فنية وإنسانية هيهات ان تجتمع لدى كاتب واحد . ففيها طلاوة القصة ، وبراعة التصوير ، وغزارة الثقافة ، ومشاركة وجدانية عميقة لحياة أجدادنا ، وهى حياة كادت تنسينا واقعها كتب أطنبت فى تمجيد الولاة واغفلت وجود الشعب . لقد حان لجيلنا المتحرر ان يسمع لهذا المؤرخ الثائر .

---

* الهلال ، نوفمبر ١٩٥٨

■ الجزء الأول ■

صور من المجتمع المصرى فى القرن التاسع عشر

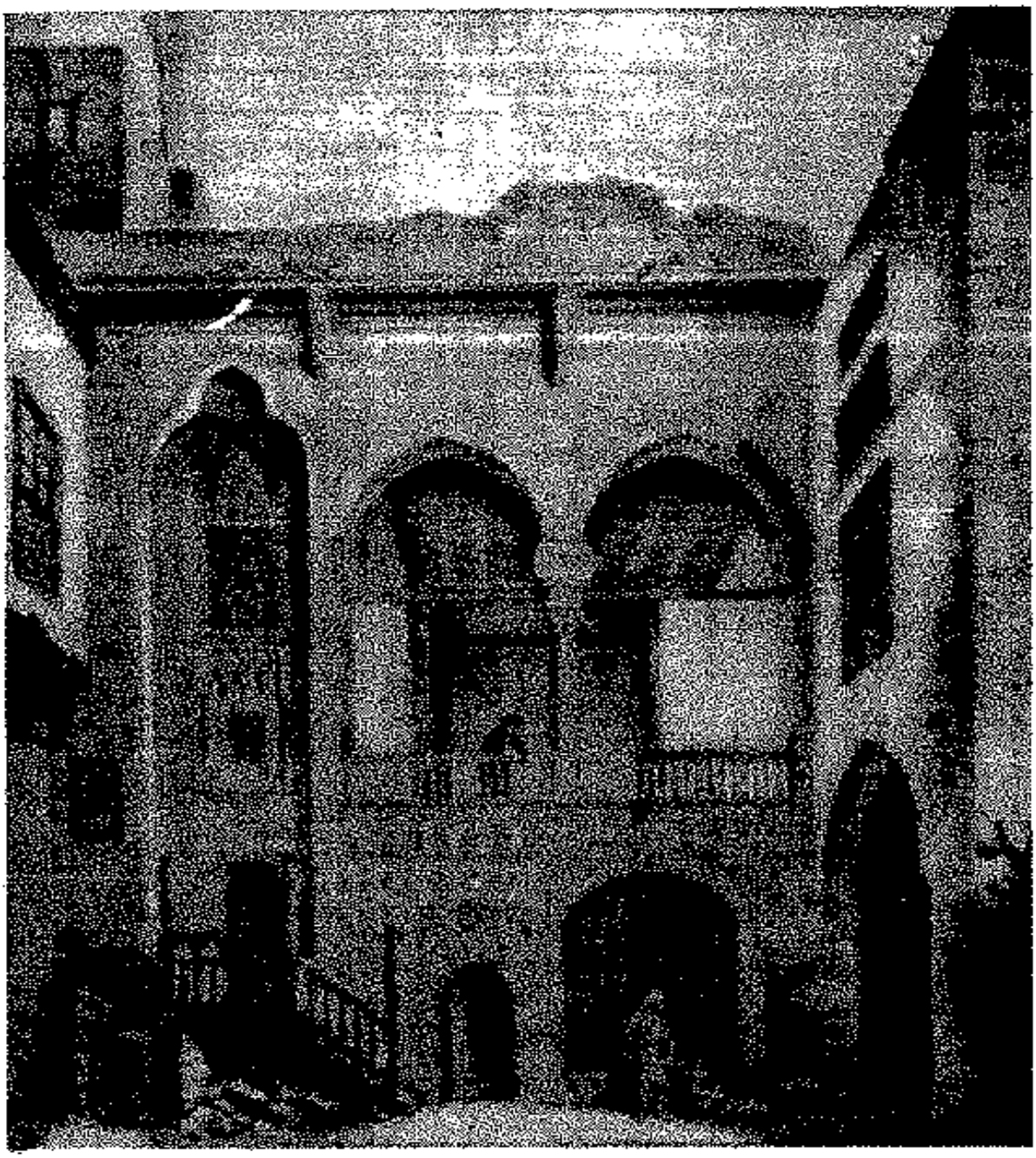

فناء بيت مصرى فى القرن التاسع عشر

نقلا عن كتاب (الفن العربى) المجلد الأول

القـــاهـــــرة

لا أعرف مدينة تتقابل فيها الاضواء تقابلا اروع منه في القاهرة . فإن السائر في الشوارع الضيقة بتلك المدينة التي تنتشر فيها رائحة القرون الوسطى ، يروعه في كل لحظة مشهد الترف المسرف إلى جانب الفقر المدقع . وتتصادم في القاهرة البهجة والآلام دائما ، فكثيرا ما رايت موكب عروس تتقدمه جوقة الموسيقيين يلتقي بموكب جنائزي دون أن يقطع الموسيقيون عزفهم ودون أن يقطع المشعوذون لعبهم ، بل ورايت في كل مرة تقريبا اعضاء الموكبين يتبادلون الحديث في الفة الإخوة والاخوات .

ولا يقل عن ذلك روعة ما تلاحظ من تباين بين الاجناس التي تضطرب في تلك الشوارع المزدحمة . فهناك يرى المرء جميع اركان الارض ممثلة ، الابيض ذا الشعر الاشقر والعينين الزرقاوين . والزنجي المنخفض الجبهة الغليظ الشفتين ، والعربي والتركي والشركسي والهندي والحبشي . كل اولئك يختلطون ويتزاحمون بالمناكب ، ويتكلمون لغات برج بابل .

■ ■ ■

مناظر من الأسواق

في كثير من الاحيان ، عندما اخرج لقضاء اموري . ادخل قهوة وهناك اتسلى بتامل المشاهد المتنوعة التي تجرى امام انظاري . احب ان تحيطني التموجات الخفيفة التي ينشرها « تمباك » نارجيلتي او غليوني الطويل ذي المبسم العنبري . والدخان هنا لا يثير سيلان اللعاب المنفر الذي يجعله كريها في أوربا ، بل يجد المرء لهذا الدخان ـ وقد اصبح رقيقا جدا لمسيره في انبوبة طويلة ، أو لانه قد تنقى في الماء ـ طعما يبحث عنه دون جدوى في كل مكان اخر . وإنه ليبقيه وقتا طويلا في فمه ثم يطرده قليلا قليلا وهو يتذوق عذوبة تبغ « صور » أو « اللاذقية » او هذه الأنواع المكيفة الأخرى التي تتفنن فيها الشعوب الشرقية .

اجلس وفي يدي غليوني ، وفي الاخرى فنجان القهوة ، والاحظ اللوحة الحية ، الصاخبة ، المتنوعة دائماً ، يقدمها لي الجمهور الذي يتجمع ويضغط بعضه بعضاً في هذه الشوارع الضيقة التي تحيطها الدكاكين من كل جانب . ولا تظن أن التجارة والاهتمام بقضاء الاعمال هما اللذان يجمعان في شارع من شوارع القاهرة هذا الجمهور الكبير ، بل إن ذلك يرجع قبل كل شيء إلى عدم الاتصال بين الاحياء الرئيسية حيث يتالف نصف مجموع الشوارع من ممرات مسدودة .

وكثيراً ما تسد هذه الشوارع الضيقة قوافل جرارة من الجمال المحملة تضطر المارة إلى ان يقفوا لكي يفسحوا لها مكاناً . وهي ـ بمشيتها الكسلى واقدامها العريضة ورقابها التي تنحني تارة نحو الارض ، وترتفع تاره اخرى ، بينما تتارجح عليها من جانب إلى جانب رءوسها التي تنظر في توان إلى ما يحيط بها ـ مشهد بالغ الطرافة .

ها هو ذا الكاتب القبطي ، المتواضع ، تحت عمامة سوداء كثيرة الثنيات ، والدواة مغمدة في طيات حزامه كالخنجر ، يمر هادئاً على ظهر حماره قاصداً ديوانه .

والالباني يختال في مشيته ، مرسلا نظرات ماكرة شرسة ، وهو يدور محتالا في هذه الاسواق المديدة . إن إزاره الابيض ، واردانه الطويلة وقد شمرها إلى كتفيه ، وسترته التي يكسوها تطريز منطفيء اللون ، وخنجره

المستطيل ، وغدارته المسرفة في الزخرف ، ومعطفه ذا القلنسوة الموشحة بجميع الالوان ـ كل هذا يؤلف أطرف الازياء .

وتُقبل ايضاً لتنويع المشهد نسوة محجبات الوجوه ، مختفيات في اردية فضفاضة ، يحملن على اكتافهن اطفالا تكسوهم التمائم ، او على رءوسهن إناء جميلا . اما نسوة الطبقة الغنية ، فتراهن محجبات من الراس إلى القدم بارديه طويلة من الحرير الاسود ، وقد ركبن حميراً اسرجت بسجاجيد نفيسة يرعاها السواس من كل جانب ، ويتقدمها الخصيان ، ذاهبات إلى الحمام او إلى اداء زيارة .

والعربي ـ الفخور باستقلاله ، متدثراً بمعطفه الابيض الفضفاض ، وقد شد بندقيته الطويلة إلى حمالة حول كتفه وصدره ، وامتطى صهوة فرسه ـ ياتي ليقدم ثمرة خدماته مقابل لوازم الحياة الاولية .

والدرويش المعروف بمجونه ، وقد كست راسه طاقية من اللبد الرمادى ، ونزل شعره حلقات على قفاه ، يقبل عليك ليضايقك ببركاته .

والمملوك المتباهى بعبوديته ، الابيض البشرة ، وإلى احد جنبيه سيف مقوس و إلى جنبه الآخر حمالة الرصاص ، يطوف في خمول بممرات السوق .

وإذا تقابل عربيان كانا لم يلتقيا منذ امد بعيد ، اخذ كل منهما يد صاحبه ست مرات او ثماني ، وقبّل كل منهما يده ثم وضعها على قلبه مرددا « كيف حالك ؟ » .

وهناك الأولياء ، نوع من المجانين مباح لهم كل شيء ويبدى نحوهم السذج احتراما دينيا . إنهم اشخاص يتكلفون التقوى ، رجال قديسون نصف عراة ، يتركون مكشوفا ما يدفعنا في العادة شهوة مفهومة إلى أن نستره ، تجدهم جالسين في الاركان أو يتقلون في الشمس . وكثيرا ما رايت نسوة تقيات متدينات يقتربن من هؤلاء الاولياء البرص ويقبلن ايديهم المنفرة .

ويمر بك الحلاق فتعرفه بتلك العصاية الطويلة من الجلد التي تتدلى من حزامه وعليها يقلب سلاحه ، وبهذا الطست النحاسى المبيض بالقصدير يتابطه تحت ذراعه ، وبهذا الخُرج وتلك المراة المحلاة بقطع من الصدف .

× × ×

ويمر بك مكفوفون يقودهم غلمان صغار ، وحمير محملة بالشمام أو البطيخ ، وبرص ، وكلاب ضالة ، وباعة متجولون ، ثم متسولون مصابون باورام ضخمة أو بداء الفيل البشع ، وصناع يحملون أثقالا ، أو يدقون القهوة في هاون بقطعة غليظة من الخشب مزودة بكتلة كروية لتكون اشد وقعاً . وتختلط صيحات السواس التي لا تنقطع « اوع رجلك ! ضهرك ! عندك ! » ونداء الباعة ، وعواء الكلاب الضارية وقد وطئتها اقدام الجياد والحمير والبغال المحملة بالقرب ، وولولةالنساء الحزينات وإنشاد المؤذنين يدعون المؤمنين للصلاة .

وفي غمار هذه المعمعة ، كثيرا ما تشهد مرور موكب عظيم قد احتشد فيه رجال يرتلون بصوت مرتفع آيات من القرآن ، تصاحبهم أصوات ناشزة من الطبول والمزامير والأبواق الصفيحية التي تبعث اقصى ما تستطيع ان تتخيله من صوت ثاقب ، تطلقها جميعا لتحوز إعجابك جوقة من الموسيقيين على ظهور الحمير او الجياد دون ان تبالي بتوافق الانغام ، يتبعها هودج مزين ببهرج من « القرتر » يحوي بعض اثار الشخصية التي يحتفلون بعيدها ، ثم عدد من المباخر ، وشيوخ يحملون رايات من جميع الاشكال والالوان ، ثم موكب جرار من الاتقياء والمكفوفين الذين يتبعون . فإذا اضفت إلى هذا الهرج زركشة الازياء .. تكونت لديك فكرة عن تلك المسيرات .

ولكن كل هذا الصخب وهذا الازدحام لن يعطيك إلا صورة ضعيفة جدا من اللوحة التي تقدمها إليك أسواق القاهرة ، حيث يختلط القبطي والعربي والسوري والتركي وزنج سنار ودارفور والمغربي والحبشي والفارسي والهندي واليوناني والاوروبي ، ويضطربون ، ويتدافعون بالمناكب للاغراض نفسها .

على أن المنظر في داخل القهوة حيث تنتشر الاقداح واوراق اللاذقية بخارها أو دخانها بلا انقطاع ، منظر بالغ الطرافة ايضا . هناك من ابهظتهم البطالة أو اسباب العدم فاتوا بمظهرهم الجليل يلتمسون في هذا المكان الصحو من سبات وجودهم ، وفلاحون مساكين يتناسون شقاءهم بلحتساء القهوة العربية في تلذذ . لقد امسك كل منهم « الجوزة » في يده ، وقبع هؤلاء او رقدوا على الاريكة ، منهمكين في لعب المنجلة او الطاولة او الشطرنج ، واجتمع اولئك حول متسول ورع يلهيهم برواية القصوصة ماجنة ، إذ قلما يضحكون لشيء اخر .

ويقص الراوى فى جلالة تلك الحكايات العجيبة ، سهرات ألف ليلة وليلة ، التى يقاطعها جمهور المستمعين بين لحظة واخرى بصيحات التعجب : « الله ! عجايب ! والله شيطان ! » ، على حين قد أخذ آخرون فى الغناء . وقعد غيرهم على السجاجيد يسبحون بمسابحهم .

■ ■ ■

راوى الحكايات فى صورة « العوالم » للرسام المصرى الراحل حامد عبد الله

عـــدالـــة المحـــتســـب

المحتسب - وهو « الاغا » المكلف بالإشراف على الاسواق - يطوف في المدينة على صهوة جواده . يتقدمه « القواسون » حاملين ميزانا ضخما . ويكتنفه ويتبعه منفذو احكامه وخدم عديدون مسلحين « بالكرابيج » او بالعصى الكبيرة . فيستعرض الموازين ، واثقال الوزن التى يستخدمها الباعة ، ممتحنا من يختاره أو تختاره المصادفة . وقد يستجوب الخدم الذين اشتروا شيئا من المواد الغذائية ، ليعلم الثمن الذى دفعوه ، والوزن الذى أعطى لهم . ومن أى بائع كان ذلك . ثم يامر بان توزن أمامه المواد ، فإذا اتضح غش في الوزن او غلاء في الثمن ، استقدم التاجر وامر بضربه بالعصا في الحال .

يقبض خدمه على المطفف ويطرحونه ارضا بحيث ينكفىء وجهه ناحيه الارض ويشدون ساقيه في « الفلقة » ، وهى نوع من النير الخشبى ، ثم يوقع على بطن قدميه عدة منفذين مائتى أو ثلاثمائة ضربة بالسياط يعدها الاغا في هدوء على حبات مسبحته الوردية .

ويسال المحكوم عليه العفو ، متوسلا بالنبى ، ثم بالاغا ، ثم باولاده وهم اعز ما لديه . وفي نهاية الامر ، لا يستطيع التاجر التعس ، وقد تمزقت قدماه ، ان يعود إلى دكانه إلا محمولا او متوكا على ذرع بعض اصدقائه او بعض المتفرجين .

واحيانا ، إذا تكرر الغش من المطفف او إذا اتفق مع آخرين لرفع ثمن المواد الغذائية إلى درجة تثير شكوى الجمهور ، يامر المحتسب بتسمير اذنه لكى يكون عبرة رادعة .

وتلك عدالة سريعة ناجزة ، ولكن لها عيوبها . وتوقيع العقاب في اكثر الاحيان يوحيه التحيز ، فإن لم يستغل الاغا سلطته المستبدة في ابتزاز الاموال او اغتنام السلع ، فإن قواسيه وخدمه يثنون ذلك في اغلب الاحيان ، وهو امر سهل حيال هؤلاء التجار الذين لم تحدد لهم رقابة ميزانا ولا مكيالا أو حيال باعة فقراء يكلفهم شراء اثقال الوزن النحاسية ثمنا باهظا لا يستطيعون تسديده فيستعيضون عنها بقطع من الحجر ذات وزن مناسب .

الأمن والعقوبات

مازالت مصر لا تعرف النظم الاوربية المهذبة . ويندهش المرء لقلة الشرطة وقلة الاضطراب مع ذلك .

ولا يجد الاجنبى فى اى مكان آخر حرية اكثر مما يجد فى مصر . فالرحالة يقبلون ويقيمون وينتقلون من اقليم إلى اقليم دون ان تهتم اية سلطة بحضورهم . أو تتحرى وظائفهم . ولاى سبب يقومون برحلاتهم ، ولا يلزمهم احد باستيفاء الاوراق . فهى شىء مجهول هنا .

على ان عدم المراقبة هذا لا يفسد الامن الخاص واستتباب الحياة العامة . فالطرق بوجه عام مامونة على الرغم من قلة طارقيها . ولا يبلغ عدد حوادث السرقة والقتل ذلك القدر الملحوظ الذى يبلغه فى الدول الاوربية ، وهذا مع حفظ النسبة ، ولكنه امر قد يرجع إلى ان تلك الجرائم لم تجد بعد وسائل النشر التى وجدتها بين اهل اوربا .

وفى تلك الأسواق لا تغلق الدكاكين غالبا ـ وهى التى تجتمع فيها كل انواع السلع الثمينة السهلة الحمل ـ إلا بأقفال خشبية رديئة ، وعندما يتغيب التاجر عن دكانه اثناء النهار ، يسدل على بابه شبكة بسيطة . واما مخازن الجمرك حيث يتجمع عدد كبير من السلع فقد عهد بحراستها إلى بضعة حراس ، على حين تنبسط مستودعات الغلال فى الهواء الطلق .

وقلما تعاقب السلطة بالسجن ، ولكنها تستخدم الضرب بكل سهولة وهو تعذيب فظيع همجى كثيرا ما يدفعونه إلى حد القتل . فهم يخلعون نعل المذنب ويرقدونه على بطنه ، رافعين فى الهواء قدميه اللتين يوثقونهما ويشدونهما بعصا محلاة بأحزمة تسمى « الفلقة » وعلى هذا الجزء يضربون « بالكرباج » إلى ان يقول القاضى كفى . وكثيرا ما يوقعون هذا العقاب على الدبر . ولقد رايت وزير الحربية السابق « محمود بك » يامر بضرب بستانى قد سرقه ضربا على قدميه ودبره وبطنه وراسه حتى مات الرجل .

وحسب الرواية ، قد حدد النبى أن يكون الضرب بغصن النخلة أو بعصا مستوية من الجلد . وهكذا يفعلون فى الجيش وفى إدارات القاهرة . ولكن الحكام فى الاقاليم مازالوا يعمدون إلى الضرب « بالنبوت » وهى عصا غليظة تجرح المحكوم عليه فى اكثر الاحيان .

وقد خطر لمحمد على أن العقاب يكون مفيدا بإنشاء الأشغال الشاقة . وجميع المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة هم من التعساء الذين ألحقوا بأبدانهم عاهات للفرار من التجنيد . ويلاحظ بينهم أيضا بعض التلاميذ الذين أرسلوا إلى أوربا وحكم عليهم بالأشغال الشاقة لأنهم لم يستفيدوا من النفقات التى صرفها الباشا ـ ناشر المدنية ـ على تربيتهم .

* * *

فن التجـــارة

اذكر ما روى لى أحد التجار من أن مشتريا أتاه فساومه على سلعة ، ثم قال له بعد أن اتفقا على الثمن إنه لا يستطيع شراءها منه فى الحال . فأجابه التاجر :

« تعال غدا ، فإنى قد استفتحت اليوم . ولكن إذا لم تستطع الانتظار فاذهب إلى جارى الذى لم يبع شيئا . ان لديه السلعة التى تريدها . وقل له إنك اتفقت معى على السعر . فالتاجر إن لم يستفتح قبل الظهر لن يرزق فى بقية نهاره .

* * *

منادادة البـاعـة فى القـاهـرة

لمعظم باعة القاهرة المتجولين ، ولا سيما بائعى الفاكهة وبائعات الباقات مناديات غريبة جدا ، فيها صور شعرية ، وقد تحمل معنى مزدوجا . وفى اغلب الأحيان يتعذر عليك ان تعرف ماذا يبيعون وراء تلك الهتافات أو تلك الإعلانات .

تنادى بائعة اللبن قائلة : « يا صباح اللبن ! أو صباحك لبن ! » ، أى ليكن صباحك أبيض كاللبن .

وكثيرا ما يعلن عن قصب السكر فى الشوارع بنداء « ابيض عالى والثمن غالى » ، وهى عبارة يفهم السامع أنها عود القصب الذى يغلو ثمنه كلما كان طويلا أبيض اللون ، وانها تعنى من ناحية اخرى نهد او عانة البائعة التى تكون فى هذه المناسبة فتاة دائما .

ويعرضون قصب السكر أيضا للبيع منادين : « يا اللى يزور حماته بالنبوت يا ابيض ! » . فالمصريون يزعمون ان الحماة تسدى لابنتها دائما شر النصائح ضد زوجها ، وهى لهذا السبب خليقة بأن يزورها ختنها حاملا عصا فى يده .

وتصيح بائعة البرتقال : « يا بردقان يا عسل ! » او « كريم عليم يا بردقال ! » داعية الله مكنية عنه بصفتين من صفاته راجية أن يسهل البيع ويروجه .

ويصيح بائع الليمون الحلو : « عسل يا طرنج عسل ، دوا للقلب يا طرنج عسل ! » . فهم يزعمون ان هذه الثمرة طيبة للمعدة ، ويخلط البائع هنا بين المعدة والقلب .

وتعلن بائعات الفاكهة عن سلعهن ، كما يفعلن لدينا ، بإضافة اسم المكان إلى اسم الثمرة : « قوة الرمان ! » أى أن ذلك الرمان من غرس « قوة » وهى موضع مشهور بجودة هذه الفاكهة .

ولبائعات باقات الورد مناديات شعرية ، فهن يقلن : « الورد شوك من عرق النبى فتح » أى أن الوردة كانت شوكة ثم ازدهرت إذ سقطت عليها قطرة من عرق النبى . وهن يقلن أيضا : « خلاقه عظيم ! » إشارة إلى صانع تلك المعجزة .

وتباع باقات الياسمين بمناداة « روايح الياسمين عجب ! »

وتقول باشعات الحنة : « تمر حنة من روائح الجنة » .

والجائلات لبيع الأقمشة يرسلن احيانا صيحات غريبة لتستاثر بالانتباه ، فللإعلان عن نوع من نسيج القطن مصنوع بالة يجرها الثور ينادين : « شغل الطور يا بنات ! »

وقطع الحلوى الصغيرة التى تسمى : « حلاوة » وهى تتركب من العسل المطهو مخلوطا بعقاقير اخرى ، تجول بنداء : « بمسمار يا حلاوة » اى أن ثمن القطعة منها مسمار .

ويجول الترمس فى المدينة بالإعلانات الآتية : « مدد يا انبابى مدد ! » أو « ترمس انبابة يغلب اللوز ! » أو « ياما أحلى بوح البحر » .

وثمة نداء آخر اصعب فهما للاوربى مما تقدم ، الا وهو : « يا مسلى الغلبان يالب ! » . فهكذا يعلنون عن بذور زرع من الشمام يسمى : « عبد اللاوى » . وهم يبيعونها ايضا منادين « اللب المحمص » .

ويتجولون بثمر الجميز منادين : « جميز العنب ! » .

وينادى باعة الليمون : « الله يهونها ياليمون ! » .

■ ■ ■

الـكيـــــف

يبدو أن « لافونتين » قد أراد تصويره في قوله :
« إنما نعيم الإله ناشيء انهم لا يحملون هما . انه انعدام الموت ، وعمل لا شيء » .

الكيف هو الحياة في سكون البطالة ، الحياة دون مشاغل ولا رغبات ، الحياة التي تنطوي فيها النفس على نفسها فلا يصبح لها من لذة إلا في الإحساس بانها تعيش وفي تتابع التموجات والتيجان البيضاء التي يرسمها الدخان المنبعث من تبغ اللاذقية العبق . فللشرقيين النهمين إلى كل متعة داخلية هادئة كلمة تستعصي على الترجمة يعبرون بها عن ذلك النعيم الذي لا يوصف ، ذلك المزاج من راحة الجسم وطمانينة النفس ، تلك السعادة الأليفة ، وهذه الكلمة هي « الكيف » .

وحين يقارن المرء حياتنا المضطربة اللاهثة المتكبرة ، واسلوبنا في فهم السعادة ، بما يذهب إليه العرب من السكون الهنيء ، لابد من ان يفكر في بطلي الأسطورة القديمة اللذين راح احدهما يجري باحثا عن الحظ دون جدوى على حين انتظره الآخر في هدوء على سريره حيث اقبل الحظ يسعى إليه .

« الكيف » يدل على ذلك الاستعداد الموفق للاستمتاع بكل ما يعرض من طيب الأمور في اي موقف يوجد المرء فيه دون قلق لما يعرض فيه من سيىء الأمور . « الكيف » يعرف الاستمتاع بالراحة إذا اتيحت ، والاستغناء عنها إذا لم تتح . « الكيف » كلمة تقرب من المثل القائل « القناعة تفوق الغنى » كلمة يحسن إدخالها في لغتنا .

■ ■ ■

To: www.al-mostafa.com

الحـــريـم

إذا كانت هناك أشياء لا يراها المرء أثناء رحلاته ولا يمكنه ان يعلم علمها إلا بالإقامة في البلد الذى يزوره امدا طويلا ، كالعوائد والاخلاق ، فذلك ما يمكن أن يقال عن النساء المسلمات ، نظرا لانهن منطويات دائما داخل « حريم » لا يرين إلا ازواجهن واقرب اقربائهن . محال ان نعلم شيئا عن وجودهن إلا من الاوربيات او السوريات اللواتى يختلطن بهن . وإنك لتسب المسلم سبّاً إذا سالته عما يخص حريمه ، فهو لا يذكر ابدا اسم زوجته في مجلس عام ، وهيهات ان يتحدث في مجلس خاص عن شئونه البيتية

* * *

اما جمال المصريات ففيه شيء مما يروقك في كل النساء الجميلات ببلاد العالم جميعا . وليس حسنهن في انتظام التقاطيع والجمال الصارم الذى تراه في الاوروبيات ، إنه حسن حلو ساحر ، مزاج من إفريقية واوروبا : الوجه لطيف دون ان يكون رائع الجمال ، صغير الانف ، كبير الفم في وسامة ، غليظ الوجنتين قليلا . وفي عينيه الطويلتين الواسعتين لحظ فاتر فاتن غلاب . لا تبحث هنا عن بشرة زنبقية والوان من الوان الورد وصدر من المرمر الابيض : بل قدر هذه البشرة السمراء التي ذهبتها الشمس .

وأعجب بصورة هذا الصدر الذى ما ابدع مثال اجمل منه . وانظر إلى هذا الخصر الدقيق كانه خصر النحلة ، فهو الذى رسمه الفنانون المصريون على آثارهم وخلب جميع الفنانين الاوروبيين .

وإذا كانت الطبيعة لم تشكل المجموع بالنسبة نفسها من الجمال ، فقدر هذه الاجزاء التي تعوض عن عيوب كثيرة ، ولكن يادر إلى الاستمتاع ، فالجمال هنا يعبر سريعا ، إنه زهرة لا تدوم إلا نهاراً ، وما تكاد تستمتع بها حتى تذبل : ذلك ان النساء لا يقمن باية رياضة ولا يصطنعن اية وسيلة تحفظ حسنهن ، بل يلتمسن السمنة بكل الطرق ، فتشوههنّ منذ الصبا .

وتحاول المصريات ـ والتركيات بوجه خاص ـ أن يصلن إلى تحقيق تشبيهات شعرائهن القوميين : فهن يسعين إلى جعل أوجههن مستديرة كالبدر ، وإلى جعل أردافهن عريضة بارزة لينة .

ولا تبحث كذلك لدى المصريات عن هذه الملاحة التي تكسب نساءنا ما لهن من شخصية ، فليس لثغورهن سوى ابتسامة واحدة ، وليس لعيونهن سوى نظرة واحدة ، وليس في نفوسهن إلا فكرة واحدة ، هي اللذة ، كأنهن لم يخلقن إلا للحب .

* * *

وفي الشرق ، حيث لا يرى الرجال النساء ، هيهات أن يقرر الحب الزواج . فالزوج لا يختار زوجته عن عاطفة أو لتوافق في الطباع وفي الأفكار ، بل إن المنفعة هي التي تقود وتقرر . وإذا أراد تركي أن يتزوج فهو يقترن عادة بجارية سرحها أحد الكبراء ، والكبراء يهيئون دائماً مكاناً لمن يقدم لهم ذلك المنفذ . ويهب محمد علي في أغلب الأحيان نساءه اللواتي يضيق بهن لمماليكه أو البكوات الذين يعتبرون تلك الخطوة دليلاً من دلائل الشرف أو سبيلا إلى الثراء والجاه . أما أهل البلاد فيتزواجون غالباً فيما بينهم .

* * *

وترى قريبات الفتى ـ في الحمام أو في زيارة ـ معظم الفتيات ، فيصفنهن له بالتفضيل حتى إذا ناسبته هذه أو تلك . ذهبت أقرب قريباته إلى طلب يدها . وأقيمت مراسم الزواج في بيت الزوج . وتخرج العروس من بيت أبيها في موكب حافل لتدخل بيت الزوجية ، حيث العبودية تنتظرها .

يفتتح الموكب قرع الطبول وعزف الموسيقيين وكل ذلك الهرج الذي يسود الاحتفالات العربية ، ويأتي بعد ذلك الراقصات والمشعوذون ، ثم المدعوون إلى العرس ثم النساء المحجبات كالعادة يطلقن صيحات الفرح الطويلة (الزغاريد) ، ثم تقبل العروس تحت سرادق من « القماش » الأحمر ، يكسوها من الرأس إلى القدم حجاب كثيف زاهي اللون ، وقد زينت رأسها بالحلى . وتسندها في سيرها امرأتان تقودانها

ثم يقبل موكب غفير من الأقرباء والأصدقاء والأطفال وكل من يحب الاستطلاع وكل من يجتذبه الحفل . ويقف جميع هذا الركب بين وقت

وآخر ، لتؤدى الراقصات رقصهن ، ويؤدى المشعوذون حركاتهم . حتى يصل موكب العروس إلى بيت العريس .

وفى اليوم التالى يعرض على المدعوين منديل ملطخ بالدم او قميص العروس . ويعير القوم اكبر الأهمية للعلائم التى تثبت أن العروس عذراء . وللزوج الحق فى أن يسرح زوجته فى الحال إذا لم تقدم له ذلك الدليل على عفافها . على ان هذه العادة الفظة والغريبة ليست دليلا قاطعا ، وما اكثر القابلات العجائز اللواتى يبعن للفتيات سر خداع عريس ساذج !

* * *

ليس للمرأة فى نظر الشرقى قيمة اكبر من انها تؤدى واجب الزوجية . إنه لا يعرف ابدا مناجاة الحب الحلوة ولا النعيم بالثقة . منذ ان يدخل حريمه تَمْثُلُ زوجته امامه وقد كتفت يدها على صدرها فى تواضع ووقفت عينيها على عينيه تترقب ادنى حركاته . ولا يكاد يشير إشارة حتى تهرع فتحضر له « الشيشة » او تقدم له القهوة ، على حين لا يتفضل السيد - وقد استلقى فى كسل على « الديوان » - بأن يخاطبها إلا لماماً .

والنساء شديدات التراخى ، يعجزن عن القيام بعمل طويل ، ويقضين نهارهن متمددات على ارائكهن يتعطرن او يضفرن شعرهن ، أو يسترسلن إلى احلامهن ، او يغتبن غيرهن ، او يتجسسن على سلوك جيرانهن .

ومهما يكن من شىء ، فقد توجد هنا السعادة المتوقفة على النساء ، كما توجد فى كل مكان اخر . فإذا كانت المرأة شابة ، جميلة ، محبة ، فيها لطف ورقة ، فهى تستطيع ان تمنح تلك السعادة حبشية كانت او مصرية أو فرنسية . ولعل الحياة التى اعتادتها نساء الشرق اضمن لسعادة الزوج .

فالعالم والمجتمع فى نظر الشرقية يتلخص فى زوجها وابنائها وبعض الصديقات . وهى لذلك لا تجد فى نفسها تلك العواطف والحاجات المتكلفة التى انتجها المجتمع وانتجتها الحركة الصاخبة ، حيث يبذر نساؤنا فى سنوات قليلة نفوسهن واجسامهن .

إن الشرقيات اكثر هدوءا ، لا يعشن إلا بفكرة واحدة ، لرجل واحد ، يقفن انفسهن على الحب ما دمن فى الشباب ، وبعد ذلك يقفنها على اولادهن وعلى شئون بيوتهن .

لا تقولوا إذن : إن هذه الحضارة متاخرة ، همجية ، فلئن حرمتهن حرية كبيرة فإنها تعوضهن عنها سعادة بيتية ، وتلك اثمن السعادات جميعاً ، لانها الوحيدة التى ليست حلماً .

■ ■ ■

من الغيرة إلى الإيثار : قصتان

الغيرة التى بين نساء الحريم اقل بكثير مما نظن بوجه عام : فهناك غير قليل من النساء يعشن معاً كالاخوات ، يهتممن بنفس الشئون ، فى ظل نفس الحنان ، دون ان يُتْلِفُهُنَّ الحسد . إنهن يضمرن لزوجهن او سيدهن احتراماً كبيراً ، و إذا كانت المعاملة التى يلقينها منه رقيقة نزيهة .. ابدين له فى اغلب الاحيان إخلاصاً هيهات ان تجده فى غير الشرق .

زوج فرنسى

عرفت فى مصر ضابطاً فرنسيا كان قد تزوج ، على طريقة اهل البلاد ، فتاة قبطية ورزق منها ولداً . وكان يحبها حبا جما ، ولكنه ، بعد بضع سنوات من هذا الاقتران ، احب فرنسية اثارت فى نفسه جميع ذكريات وطنه ، فطلب يدها ونالها . وإذ علمت الزوجة القبطية استيئت . وانتهى بها الأمر إلى ان رضيت فى إذعان ان ترى من وقت لآخر هذا الرجل الذى وهبته نفسها . وبفضل ثرثرة صديقاتها سرعان ما وقفت الزوجة الأوروبية على الأمر ، فذهبت إلى بيت غريمتها متنكرة ، وعاشرتها بعض الوقت وإذ وجدتها ممتازة فى عوائدها بقدر ما هى ممتازة فى تعلقها العميق بزوجهما المشترك ، قررت ان تسكن معها ، ونفذت قرارها فى اثناء تغيب الزوج غيبة طويلة . فلما عاد ، قدمت إليه الأم والولد ، وقالت له :

« لقد عشنا منذ رحيلك كالاختين ، وأرجو الا تفرقنا ! »

فكان أن عاشتا معاً ، حتى فرق بينهما الموت .. وكثيرا ما يرى المرء فى الحريم زوجتين ترضعان معا ثمرتى حب رجل واحد فتتبادلان كل يوم طفليهما ، إن لم يكن ذلك لتوثيق عاطفتهما المشتركة ، فلتوثيق رابطة الاخوة بينهما على الاقل .

* * *

واستطيع أن اذكر الف مثل من نساء يخترن بانفسهن الغريمات اللواتي سوف يشاطرنهن فراش الزوج ، ولكني ساقتصر على ذكر مثل واحد .. لان الذي اورده رجل من اكبر رجال القاهرة علماً ، هو الشيخ عبد الرحمن الجبرتي ، الذي كتب تاريخاً لمصر الحديثة سماه « عجائب الآثار في التراجم والأخبار » وفيه يتحدث بإطناب عن اسرته وعن ابيه . والذي يعنينا هو ابوه ، الشيخ حسن ، وقد كان رجلا مثقفاً مبجلا .

أحبته زوجته الأولى أنزه الحب ، وكان من بين أعمال البر الزوجي التي كانت تنتظر عنها الثواب في الآخرة انها اشترت عدة مرات من مالها الخاص جواري فتيات حسناوات هياتهن على نفقتها ، وقدمتهن سرايا لزوجها . ولما كان الشيخ حسن موفور الثراء فقد اتاح له ذلك ان يتزوج نساء اخريات ، وأن يشترى جواري اخريات ، لم تظهر لهن زوجته الاولى اية غيرة ، وهذا مالا تفعله كل امراة .

وحين ذهب الشيخ حسن إلى الحج ، تعرف في مكة بالشيخ عمر الحلبي الذي الح عليه في ان يشترى له من القاهرة جارية بيضاء عذراء لا تكاد تتجاوز سن المراهقة ، وتتحلى بصفات كذا وكذا . فلما عاد الشيخ حسن مضى إلى سوق الرقيق ، وبعد بحث كثير وفق إلى شراء جارية تجتمع فيها كل الأوصاف المطلوبة . وعهد بها إلى زوجته إلى ان يستطيع تسليمها للشخص الذي كان مقدراً أن يقتادها إلى وجهتها . وحان ذلك اليوم ، فانيا زوجته لكي تعد جميع ما يلزم ، غير انها في لحظة فراقها للجارية ، أحست بعظم معزتها لها ، فقالت له :

— لقد الفت بيني وبين « زليخا » عاطفة كبيرة ولا استطيع ان افارقها انا لم ارزق اولاداً فاتبناها ابنة لي .

وكانت الجارية الفتاة حاضرة ، فاخذت تبكي ، وجارت انها لا تريد مفارقة سيدتها ابداً . فقال الشيخ

— ماذا انا فاعل إذن ؟

فاجابته زوجته :

— اذهب فاشتر جارية اخرى ، واما هذه فسادفع ثمنها من مالي .

وتم ذلك واعتقت الزوجة العاقر جاريتها « زليخا » ، ثم اعدت لها « شوارها » ، واثثت لها مسكناً منفصلا ، وزفتها عروساً لزوجها الشيخ

حسن ، وعلى الرغم من انها اصبحت شريكتها في الزواج واما لعدة اولاد ، فإنها لم تكن تستطيع فراقها ساعة واحدة . وبعد عدة سنوات مرضت زليخا مرضاً شديداً . فإذا السيدة العجوز تمرض بدورها ، ولا تعمر بعد وفاة تلك التي اتخذتها ابنة لها إلا ريثما تشيعها وتنظم بنفسها جنازتها .

■ ■ ■

في الحمـــــــام

ان الحمامات من الداخل جديرة بالوصف . فبعد أن تجتاز ممشى طويلا ، تنتهي إلى بهو فسيح ينفذ إليه النور والهواء من فتحة عريضة بالسقف . وتحتل وسط هذا البهو في العادة نافورة تنبثق في حوضها . وتمتد حول الجدران من كل جانب مصاطب فرشت بالسجاجيد والنمارق . هناك يودع المرء ملابسه . ولا تكاد تدخل حتى يتقدم نحوك خادم ليعينك على خلع ملابسك ، ثم يدثر رأسك بمناشف دافئة ، ويضع قدميك في « قبقاب » خشبي ، ويقتادك من يدك في ممر متعرج ينفذ منه المرء إلى المُحِمّ .

انها عدة غرف متتالية ، محلاة بفسيفسات من المرمر أو الصيني الملون يحفظها الماء دائما جد نظيفة ، وجميعها تسبق قاعة كبيرة مستديرة كسا الأسمنت جدرانها ، واتخذ سقفها هيئة قبة خفيفة لطيفة تزينها قطع من الزجاج الملون تنشر نورا حلوا جدا . وقد صنعوا في الوسط نافورة ومدوا حول الجدران أرائك يستلقي عليها المستحمون حين يدلكهم الدالكون .

وتتصل بهذه القاعة المستديرة عدة غرف صغيرة يحتوي بعضها على مقاعد رخامية في وجه صنابير تصب الماء البارد والساخن الذي يستحم به المرء ، ويحتوي بعضها الآخر على حوض يملؤه ما يغلي فيمتزج بخاره المتجدد دائما بما يحرقون من عطور . وفي العادة يستلقي المرء في هذه القاعة وقد أسند رأسه إلى وسادة صغيرة أو اتكا يدخن النرجيلة متخذا جميع الأوضاع المناسبة ، بينما تغمره سحابة من البخار تنفذ من مسامه جميعا فتصيب عرقا غزيرا .

فإذا استرحت قليلا وندیت جميع اجزاء جسمك بندى لذيذا تسلمك فتى يكاد ان يكون عاريا ، ليمرسك فى رفق ، ويقلبك ، ثم يركع فيثنى جميع مفاصلك دون إجهاد ودون إيلام ، ويمد جميع اطرافك ويجعلها تؤدى حركات كبيرة .

وبعد تلك المقدمات الرياضية ، قد يضع يده فى قفاز باذخ الزينة ، وقد لا يصطنع القفاز ، ولكنه يفرك سطح جسمك باكمله نازعا منه كل وسخ لاصق به ، ثم يزيل بقطعة من الحجر الاسفنجى ما يعترى قدميك من نتوء .

وبعد التدليك ، ينشر على جسمك زيتا صابونيا ثم يغسلك تماما .

وحين تنتهى هذه العملية يكسوك بمنشفات جديدة ويعيدك إلى القاعة الاولى ، حيث تستلقى فى استرخاء على « ديوان » ، تحسو القهوة وتدخن الغليون ، على حين يغلفك غلمان صغار بمناشف جديدة ويبداون فى تدليكك مرة اخرى .

ولا تكاد النساء تخرج إلا للذهاب إلى الحمام . فهناك يقضين فى كل اسبوع ساعات حلوة لذيذة ، يعرضن ترفهن ، وعطورهن ، ويسلمن شعورهن لتضفر وتصفف فيها صفائح ذهبية او فضية . وفى الحمام ياكلن وينمن وينفقن نهارهن باكمله تقريبا ، وكثيرا مايُدْخِلْنَ بعض المطربين المكفوفين ليشنفوا اسماعهن . وتعلن ستارة تسدل على باب الحمام انه مغلق دون الرجال ، وإذ ذاك يترك جميع خدم الحمام مكانهم لخادمات .

■ ■ ■

رذيلة تركية

الملاوطة رذيلة شائعة جدا فى مصر لا سيما بين الاتراك الذين لا يتحرجون من مزاولتها جهرا .

قبل حرب المورة ، حينما كان إبراهيم باشا حاكما للصعيد ، كتب إلى القاهرة يطلب حضور حريمه . فارسل إليه الباشا الكبير ، بدلا من نسائه ، مماليك احداثا ، قائلا إن رجل الحرب لا ينبغى ان يكون له من حريم غير ذلك . وكذلك فعل محمود بك حيال ابن اخيه . وهذه الرذيلة التى هى القذع عار ترمى به الإنسانية لم يكن لها اى رادع فى مصر حتى سنة ١٨٣٠ إذ فرض محمد على عقاب الاشغال الشاقة على الجنود الذين

يرتكبون فيما بينهم هذه الفاحشة . وكان الشعور بالعار خليقا بان ينال أولئك الآثمين منالا اشد من هذا الجزاء الذى لا رجعة فيه ولا تشهير .

وماذا انتج نفى البغايا ؟ لقد نشر خطيئة سدوم انتشارا ذريعا ، لا سيما فى الاسكندرية حيث كان المنع اصرم . فالفاشمون لا يرون باسا من تفشى مواخير الغلمان ، ولكنهم يغرقون فى البحر اى امراة ياخذون عليها ادنى علاقة محرمة . وقد انتهكوا فى الاسكندرية اطفالا اوربيين دون ان تجرؤ عائلاتهم على رفع الشكوى خشية الفضيحة . وطنطنت الصحف لمقتل فتى راح ـ مع انه كان ملتحى الذقن ـ ضحية رفضه الإذعان لهذه الفاحشة .

* * *

لقد حرص الفنانون المصريون القدماء على تلافى تمثيل كل ما من شانه ان يجرح الذوق الرقيق المرهف . ففى تصورهم للمواقع ، حفظوا للقتلى والجرحى جميع اعضائهم ، فلا ترى شخصا بقرت بطنه حوافر الخيل . وفى المنظر الذى يمثل التحنيط ، حرصوا على الا يضعوا جثة بين يدى انوبيس ، بل رسموا المومياء تحوطها اربطتها ، هادئة الوجه مبتسمة للموت . وفى مناظر الولادة ، تجد دائما ان عملية الوضع قد تمت ، ولا ترى ادنى شىء من التفاصيل التى تعافها العين ويمجها الذوق . اما اثار الهنود فهى عكس ذلك تماما .

* * *

درأويش

نوع من المجانين نصف عراة ، يحتقرون ـ تحت ستار الدين ـ كل شىء ما عدا شهوات البدن . وهم من الشعب ، يتكلمون لغته ويقنعونه اكثر مما يقنعه العلماء .

فى صلاة الجمعة ، اقبل درويش فوضع امام كل من الحاضرين ورقة صغيرة يحليها إطار من الزخارف العربية وتحوى اية من القران . ووضع كل امرىء صدقته فوق البطاقة ، وعاد الدرويش فجمعها دون ان يوجه للمتصدقين عليه ادنى شكر .

وقلنسوة الدرويش منسوجة من تسع وتسعين غرزة لا غير ، إشارة إلى صفات الله التسع والتسعين .

* * *

حفـــلة ختـــــان

شهدت هذا المساء حفلا من العادة إقامته عند ختان الاطفال . رايت هؤلاء الاطفال على صهوات جياد باذخة الزينة يطاف بهم في ارجاء المدينة ، ويتقدمهم موكب حاشد . وعلى راس هذا الجمع رجل يرفع عصا كبيرة مزينة بالاشرطة والازهار ، يتبعه عدة مشعوذين ، وعوالم قد اسرفن في طلاء وجوههن وانطلقن في هيئة مثيرة يغنين ويؤدين رقصا ماجنا ، ومصارعون دهنوا اجسامهم بالزيت ومضوا يعرضون حركات رياضية . ثم تاتي بعد ذلك جوقة من الموسيقيين راكبي الحمير ، يعزفون انغاما حادة ثاقبة لا توافق بينها ، وانه لضجيج حقا .

وترسل النسوة اللواتي يختتمن الموكب صيحة حادة تختلط بين حين واخر بالموسيقى ، وهي تلك الصيحة نفسها التي يستخدمنها في الجنائز مع تنويع خاص في تنغيمها باصواتهن . ويسند كل طفل على حصانه سائسان يقفان به ما وقفت هذه « الزفة » ، وهي تقف في كل ميدان لتؤدى الرقص والالعاب .

وهكذا يعودون بالاطفال إلى بيت ابيهم حيث يقوم حلاق بالعملية ، ولا يفوت الاب ان يدعو إلى وليمة حافلة لهذه المناسبة جميع الاقرباء والاصدقاء .

ولم يامر القران بالختان ، ولكن المسلمين ، بل والاقباط ايضا عقب العماد ، يختتنون بوجه عام جريا على تقليد ورثوه عن آبائهم ، ولان ذلك من إجراءات النظافة . ويقال ان فيثاغورس قد اضطر إلى ان يمتثل للختان لكي يتحدث مع الكهنة المصريين ويباح له دخول هياكلهم . واما اليهود فينفذونه بوصفه فرضا دينا .

* * *

كـــرم .. ومـــرح .. وخلـــود

لن تجد في أى مكان ارق من كرم الضيافة الذى تلقاه في الشرق . ولقد راع حسن الاستقبال هذا كل رحالة جاب تلك البلاد . وليس فيما يقدمه لك الشرقى أى مباهاة ، فهو يعتبر ذلك واجبا يفرضه عليه الدين . وانك لتصبح واحدا من افراد العائلة منذ تسكن سقف رجل مسلم . وهو لا يهتم ابدا بشخصيتك من تكون ومن أين اقبلت وإلى أين تذهب ؟ ولا يوجه إلى البائس سؤالا يحرجه أو يخجله .

على الرغم من ان الطبقة العاملة ترتدى الاسمال ، فهى ليست من الانحطاط وفساد الاخلاق بالقدر الذى تجده فى مثيلاتها التى تؤلف حثالة المجتمع الاوربى . فان دينا صارما يؤثر فى الشعب تاثيرا كبيرا ويمنعه من الانحراف المنفر الذى تصادفه لدينا .

ولقد افسد طباع هذا الشعب استبداد هو ادنى انواع الاستبداد ، ومعاملة هى اقسى ما تكون المعاملة ، وادى به السخط إلى ثورة نزعاته الشريرة ، ولكنه فيما عدا ذلك شعب موهوب بصفة المرح التى لم يستطع البؤس ان يغلبها ولم تستطع المظالم ان تقضى عليها ، وهو هذا المرح الذى يطرد هموم التفكير فى المستقبل . أهو الاستخفاف ام الخمول ؟

إن جميع ما نبانا به الكتاب القدماء عن طبع المصريين الهادىء نجده فى أهل مصر الحديثة ، كان المناخ الثابت الذى لا يتغير فى هذا البلد يضفى عليهم شيئا من طبيعته .

تكاد المهن جميعا ان تكون متوارثة ، ومن النادر الا يحترف الابناء مهنة إبيهم . و ليوم تؤلف كل مهنة ، فى كل مدينة ، نقابة لها رئيس خاص . وذلك تقليد ترجع أصوله بلا شك إلى قدماء المصريين الذين كانوا ينقسمون إلى طبقات يخلف فيها الأبناء اباءهم .

* * *

المصرى رجل ملازم للدار ، قد حفظ نزعته الضعيفة إلى الاستطلاع . انه يكره الرحلات التى تبعده عن ضفاف النيل ، النهر الذى لا يستطيع ان يبتعد عنه ـ كما يقولون ـ من شرب من مائه العذب .

* * *

العـــرس الحـــزين

روى لى الجنرال « دوماس » قصة عن كرم الضيافة العربى أعجب بها الجميع . فلما رويتها لأحد المصريين ذكر لى قصة أروع منها حدثت فى القاهرة منذ حوالى عشرين سنة .

فقد دعا غوّاد مشهور يسمىَ « محمد الجاهل » جمعا عديدا لشهود عرس ولده . وما كاد يدخل الفتى على عروسه حتى أخمدته نشوة السعادة بين أحضانها على حين فجأة . فلما انبىء الوالد التعس بالفاجعة لم يظهر شيئا من الم ، وكتم ولولة نسائه بان هددهن بالطلاق ، ثم عاد فجلس مع ضيوفه ، وتناول عوده ، واطربهم حتى الصباح . وبات يستمد من عوده الحانا شجية عجيبة ، ويتغنى بكلمات موافقة لما يجد من شعور ، ودموعه تسح من عينيه فتستدر مدامع جميع الحاضرين .

ولما حان انصرافهم قال لهم :

— ما أردت تعكير صفوكم ، فامكثوا معى قليلا لتعزيتى . إنى فقدت ولدى فى هذه الليلة ، فامكثوا لتشيعوه معى . ولتكن إرادة الله .

وأثناء تلك الليلة ردد مرارا هذه الابيات التى ارتجلها تحت تاثير الم ، والتى مازالت حتى اليوم ماثلة فى ذاكرة من سمعوه يغنى :

سبل عيونه من غير نـوم والـعين سـودة بتـراشـى
نـايم على فـرشـه سكـران ويقـول حبيبى مـا جـاشـى
روح يـا عـذولى إبعـد عنى انـا وحبيبى متـهنـى
قـوم قـوم قـوم قـوم

■ ■ ■

طِبْق الأصل

من دراسة الرسوم المنقوشة على المقابر المصرية ، يوقن المرء بتاثير « المناخ » على اخلاق السكان وعاداتهم ، وذلك للتشابه الذى بين عادات اهل مصر القدماء واهلها المحدثين ، فإن تجدد ظواهر بعينها تجدداً دوريا ، واستقرار « المناخ » هذا الاستقرار الثابت قد انتجا عادات واحدة وميلا إلى الرسوخ يتميز به المصريون . وذلك ما جعلهم يحفظون حتى ايامنا هذه ، بالرغم من الثورات الدينية والسياسية المتعاقبة ، كثيراً من العادات القديمة .

كان جميع المصريين ، على ما ذكر هيرودوت ، يحلقون رؤوسهم ، ولكن جميع المومياء ـ باستثناء بعض الكهنة ـ محتفظة بشعرها ، ورسوم المصريين تظهرهم لنا بشعرهم ولحاهم دائما .

وتصفيف الشعر خصلا متفرقة ، كما نراه بكثرة فى الرسوم ، مازال من عادات العبابدة .

وكانت حمالة تشد قمصان القدماء ، كما نرى بوجه عام لدى الفلاحين .

وكانت النساء فى القديم ، كما هن اليوم ، يتخضبن بالحناء ويحملن ضفائر طويلة من الشعر تتدلى على اكتافهن .

وعادة التوازن فى وضع متوسط بين الجلوس والركوع ، مازالت من عادات المصريين .

وقصب الغاب الذى يستخدمونه فى الكتابة شىء عام لدى جميع الشرقيين

وقد واصل ابناء الشعب حمل الأوانى على راحة اليد مع تقريب المرفق من الجسم وجعل اليد بجوار الكتف ، وهذا تمثله كثير من الرسوم القديمة ، كما هى تمثل العادة المنتشرة حالياً فى نقل الاثقال ، فإنهم يعلقونها على رافعة شديدة يحملها من طرفيها على مناكبهما اثنان من الرجال .

ويقول هيرودوت : « إذا مات رجل ذو مكانة ، لطخت جميع نساء بيته رءوسهن ووجوههن بالطين ، وكشفن صدورهن يلطمنها ، وطفن فى المدينة » . وهذه العبارة تذكرك بالذى مازال يجرى فى ايامنا .

اما الاثاث والادوات المنزلية فهى شديدة الشبه بما عرفه منها القدماء . يرى المرء فى الرسوم قدوراً كبيرة كانوا يضعونها على اقدام من خشب . ويبدو ان اوانى اخرى متنوعة الاشكال كانت لها خاصية التبريد .

الخلود فى الحياة اليومية

امام لوحة من الفن المصرى القديم جلست فلاحة جلسة الكاتب المصرى . ووقفت الاخرى كحاملات القرابين . بريشة إدريس افندى .

جولة فى شرقى الدلتا

هناك منطقة باكملها من شرقى الدلتا قد خيم عليها الفقر . عبثا تبحث عن مدينة حديثة واحدة فى هذه الربوع التى مازالت تعرض آثار كثير من المدائن التى كانت عامرة فى القديم . وفى كل يوم تنقرض هناك الزراعة مع من ينقرض من الناس .

استوينا فى مركب شراعى ، وحظينا بهبوب نسيم جنوبى خفيف ، وفر على البحارة عناء التجديف . وبدانا الرحلة فى جذل ، بين صخب الاغانى المرحة وتصفيق الايدى التى توقع الالحان مع قرع الدربكة المرتفع .

شـــبرا :

وسرعان ما مررنا بشبرا ، اى بقصر النزهة الذى بناه محمد على . فى حديقة ذلك القصر « كشك » يذكر المرء بخيالات الشرق . ويجسم امامه منظرا ساحرا من مناظر « الف ليلة وليلة » .

ثم مررنا بعدة قرى لا تقدم للباحث عن الآثار ولا لمحب الاستطلاع اى موضوع شائق ، وإنما تناقض بمظهرها الخرب وفقرها المدقع بذخ الباشا وترف العظماء . إن هذه اللوحة المحزنة التى تجرح بصر المسافر اينما رسا لتضطره فى اكثر الاحيان إلى التفكير فى اسباب هذا البؤس العميق الذى يحصد الشعب المصرى . فلو كانت حسنات الحضارة لا تُشترى إلا بالآلام والحرمان ، لما دفع شعب افدح من ذلك الثمن نظير هذا الخليط الشائن من الهمجية والمدنية الذى يصدم اعين الرحالة فى مصر .

بنهـا العسـل :

وإذا تابع المرء مجرى الفرع الشرقى للنيل ـ وكان هذا الفرع يحمل قديما اسماء تختلف باختلاف الاماكن التى يخترقها ـ فإن اول قرية ذات بال يلاحظها هى « بنها العسل » ، التى اشتهرت فى الماضى بحلاوة عسلها وبجمال حدائقها . فمن هناك ، فيما يقول الكتاب العرب ، اخذ المقوقس ما ارسل من عسل ـ مع هدايا اخرى ـ للنبى محمد ، قبل ان يغزو عمرو بن العاص مصر بسنوات قليلة .

تل أتريب :

وراء « بنها العسل » وإلى الشمال منها بقليل ، يرى الناظر عدة تلال من الأطلال تبين مكان مدينة قديمة . تلك آثار « اتريبيس » التي مازالت تحفظ اسمها قرية واقعة إلى شمالها الشرقي تسمى « اتريب » .

روى لي عامل أوربي التقيت به على تلك التلال انه اثناء تنقيبه فيها بحثا عن أحجار قبل انقضاء عشر سنوات تقريبا ، وجد اسدا من الجرانيت الوردي ، وعدة أعمدة من المرمر الأبيض وبقايا حمام . وقد استخدمت جميع هذه الآثار في بناء مصنع غزل القطن بينها العسل . غير ان الأسد ، بفضل صلابة مادته ، قد نجا واصبح يزين مدخل ذلك المصنع ، حاملا خرطوشة رمسيس الأكبر ، الذي ورد بين ألقابه على هذا التمثال لقب « منظم مصر ومروض البلاد الأجنبية » .

ميت غمر وزفتي :

واما ميت غمر وزفتي اللتان نصل إليهما بعد ذلك ، فبلدتان صغيرتان لا أهمية لهما ، تواجه إحداهما الأخرى على ضفتي النيل المتقابلتين . بهما مصانع لغزل القطن ولتحضير النيلة . ويبدو ان هاتين البلدتين حديثتا الإنشاء ، فلا يلقى الجائل فيهما أي جزء قديم . لقد لاحظ الرحالة « سافاري » في ميت غمر مسجدا يعلوه برج مربع خطر له انه استخدم كنسية للمسيحيين قبل غزو العرب .

غير ان السائر في ارجاء مصر يستطيع اليوم ان يرى عدة مئاذن مماثلة ، وليس طراز المسجد في جملته مما عرفه مسيحيو الدولة الرومانية الأخيرة ، بل تلك عمارة عربية خالصة ولكنها ذات طابع بالغ الطرافة يسترعي التفات الفنان .

وتأخذ ضفاف النيل ـ وهي كثيبة مملة حتى تلك المنطقة ـ في التزين باضرحة جميلة ، انيقة الشكل ، يتناقض بياضها الناصع سواد اللبن والطين اللذين بنيت بهما البيوت وابراج الحمام العالية في جميع القرى .

بهبيت :

وعلى بعد ثلاثة فراسخ من سمنود ، مازال الناظر يستطيع ان يرى بالقرب من قرية بهبيت ، على بعد نصف فرسخ داخل الأرض ، سورا كبيرا

من اللبن يحوط الأطلال الباقية من معبد لإيزيس يمكن للمرء ان يتخيل ابهته ، وإن كان من المحال اليوم أن يتعرف على اسسه . لقد كان مشيدا باكمله من كتل جرانيتية ضخمة الاحجام .

وبينما انا منهمك في رسم نقوش ناووس لإيزيس ، شاهدت احد العمال ، تتبعه امرأتان ، وقد اقبل ليريهما الحجر الشهير بحجر « العرايس » ، والذى يعتقد اهل القرى المجاورة ان له القدرة على إزالة عقم النساء . وكانت العروس الشابة التى لم ترزق منذ سنين ولدا تخشى العار الذى يلتصق هنا بالعقم ، فقبّلت في ورع كل تمثال على ثدييه وعلى بطنه ، لعل تقبيل هذه المواضع اشد اثرا . وقفزت سبع مرات فوق الكتلة ، ثم مضت راضية . إن عبادة الصور لم تندثر تماما بين اهل مصر ، رغم احترامهم للقران واتباعهم ما نص عليه من الفروض اليومية ، فما اطول عمر الاساطير ! .

■ ■ ■

دميـــاط

ترسم دمياط هلالا متسعا على ضفة النيل اليمنى . عند آخر مرفق يشكله وهو يجرى نحو البحر . ويمتد أمام دمياط سهل فسيح ، تحده شمالا غابة من النخيل ، بينما تنمو وراء المدينة بساتين عديدة مزدهرة بأغنى انواع النبات تخترقها ترع ترويها . أو تتخللها غدران من الماء يكسو سطحها النيلوفر ، وذلك م سل المدينة عن بحيرة المنزلة .

إن مآذن المساجد الانيقة التى ترتفع فوق النخيل ، ومختلف أعلام الدول التى عينتْ قناصل لها ، وساريات السفن التجارية ، تخلع على دمياط من بعيد لونا من العظمة والثراء . ولكنك إذا توغلت فى الداخل ، تهيبت عند كل خطوة تخطوها ـ كما هو الحال فى جميع المدن المصرية الآن ـ أن يسقط عليك طرف من جدار ، او ان تتداعى واجهة بناء معتمدة على قوائم نخرها الدود ، أو أن تهوى مئذنة قد مالت على الطريق العام .

وإذا عبرت أسواقها الضيقة المعتمة ، حيث تعرض فى مواسمها ثمرات الأرض المتنوعة ، قصب السكر والموز والتين والبطيخ والشمام والقلقاس والأرز والقمح والشعير ، بين كمثرى دمشق وتفاحها ، وتبغ صور واللاذقية ، والمشمش اللبناني المجفف ، والسمك المملح ، وصيد البحيرة ، وملح الصالحية ، وتلك الأوانى الخزفية السوداء الهزيلة التى يصنعها أهل المنطقة ، فسوف ترى فى هذه الأسواق على وجه التقريب ما تراه فى القاهرة ، وسوف تلاحظ ان الناس يكثرون هنا من استخدام أرغفة الخبز بدلا من النقود فى ابتياع المواد الغذائية الزهيدة .

لقد كانت دمياط مدينة عامرة قبل بضع سنين ، ولكنها تتدهور كل يوم ، ولا يزيد عدد سكانها الآن على ١٢٠٠٠ نسمة بما فى ذلك ٢٠٠٠ مسيحى معظمهم من المذهب اليونانى . ومازال الجائل فى دمياط يلمح آثار بذخها الغابر فى بضعة بيوت من الآجر اعتنى أصحابها ببنائها ، تنيرها نوافذ عريضة مسورة ، وابواب تزخرفها رسوم عربية جميلة .

وليس فى دمياط اثر يستحق الذكر . فإن اقدم مساجدها وهو مسجد ابولاتا [ابو المعاطى] ، لا يقدم للباحث سوى كتابات كوفية بالية ،

وخطة معمارية طريفة من حيث توزيعها الغريب لنيف ومائة عمود مختلفة المواد ، فبعضها من المرمر ، وبعضها من الجرانيت وبعضها من « البروفير » الأحمر تتنافر اشكالها بقدر ما تتنافر ألوانها ، وتحمل أقواسا خبيثة تتكيء عليها أخشاب السقف .

لقد دأب الناس على التكسير من الأعمدة المرمرية والحفر فيها وهناك المسلمون والمسيحيون ممن ينسبون إليها قدرة إعجازية على أمور معينة ، ويشربون نقيع شيء من هذا المرمر بعد سحقه . وبلغ من تخريب تلك الأعمدة أن بعضها لا يكاد يقف إلا على سن رهيفة يُفزع منظرها عين زائر لا يؤمن بإعجازها وهو يطوف بهذا المسجد المهجور .

■ ■ ■

الأتقيـــاء والماجنـون

دخلت يوما مسجد [ابى لاتا] بدمياط لكى أرسم تيجان الأعمدة ، وهى آثار عتيقة منتزعة من معابد الدولة الرومانية الأخيرة ، فوجدت المسجد مليئا بجمهور صاخب . لقد وافق ذلك اليوم عيد شيخ مبجل هناك بسبب معجزاته العديدة ومدفون بهذا المسجد الذى اصبح يحمل اسمه . وكان ضريحه مزينا بالأسمال وخصل الشعر وبهرج النذور ـ كما تزين العكاكيز التى تمكن من المشى اصحابها الكسيحون ، أو تماثيل السيقان والأذرع كنيسة كاثوليكية .

وأخذ الجمهور يتزاحم فى صحن المسجد حيث كان الإمام قد شكل حلقة كبيرة احتلت مركزها سارية عالية مزدانة بالأعلام ، فبع تحتها اتقياء يفككون حبات مسابحهم . وألف غيرهم من ذوى الحمية ـ بينهم الشيوخ المسنون والرجال والفتيان من جميع الطبقات ، وهم يسيرون وقد اعتمد بعضهم على بعض ـ محيطاً متحركاً يدور ببطء حول الحلقة الداخلية . ومضت كل حلقة تابعة من تلك السلسلة الكبيرة تهز جسمها هزاً وتهتف بصوت أجوف أجش : الله ! الله ! الله !

كان كل منهم يتكيء بيسراه على من تقدمه ، ويمد يمناه للمتفرجين الذين وقفوا صامتين ، فكوّنوا المحيط الخارجى للدائرة . وكان كل متفرج

حريصا على أن يسند الدائرين ، وأن يقبّل في ورع أيدى المتشنجين . وكان الإمام وبضعة شيوخ قائمين بجوار السارية يصفقون بالأيدى ويصيحون ليضبطوا التوقيع الذى راح قرع الطبول يؤديه أيضا بطريقة أشد صَخبا .

وسرت عواطف الحماس والاستغفار ، وانتقلت من شخص إلى شخص عن طريق البصر والسمع واللمس ، فانتشرت كما تنتشر العدوى ، وأدت في وقت قصير إلى دوار عام .

وحينما انتهى بهم التعب إلى التهاوى ، امسك المتهوكون منهم عن الاهتزاز ، وسقطوا وسط الجمهور التقى الذى كان يبادر إلى وضعهم في الحلقة ، وهناك يقبعون جامدين ، لاهثين ، شاردى الاعين ، في حال من الفناء والسكون والنشوة هي في نظرهم افضل من جميع خيرات الأرض ، لانها تصلهم بالجوهر الأبدى ، الذى يأتى نوره إذ ذاك ـ كما يقولون ـ فيملأ نفوسهم .

لبثت وقتا طويلا اتامل هذا المشهد . كان في الأزياء المتنوعة الغريبة التي ارتداها هؤلاء المشحونون بالأرواح ، كان في خليط ملابسهم ، وفي تعبير عيونهم ، وفي التشنجات التي اخذت تغير ملامح وجوههم ، كان في هذه اللوحة باجمعها طابع من التشيع والدوار المقدس اثار رعبى .

ويطلقون على هذا النوع من التمثيل الديني اسم « الذكر » اى إحياء ذكر الله ، والأولياء إلخ . وهي حفلات تقام في مناسبات مختلفة ، لشخص او لجماعة ، بغية الحصول من الله على نعمة ما أو للاتصال بذاته .

وقديما دفع داود وحيّ مُشَابه إلى الرقص امام التابوت المقدس .

واما محترفو التقوى ممن يستغلون الدين دائما في خدمة اغراض الدنيا فيقيمون الذكر لإسقاط غريم ، ولاستنزال المرض على منافس ، او الموت على عدو . ويوجد كتاب عربى عنوانه « جلجوتية » يعلّم الصوم والصلاة وجميع الطرق التي تستعمل في « الذكر » ليكون قوى المفعول .

وبعد أن خرجت من المسجد ، توجهت نحو الأضرحة التي تحيط به ، حيث اتصل الاحتفال بالعيد في اسلوب اخر . هناك كان ينتظرنى مشهد جديد . كانت تلك الجبانة بأسرها تكسوها الخيام والمقاهى والمتاجر المتنقلة . فهنا راقصات ومشعوذون يسحرون شبابا شرها ، وهناك

اراجيح تمرح فوقها الطفولة اللاهية .

وادنوا من جماعة يبدو لى انها اشد ابتهاجا وصخبا مما عداها . فقد كان جمهور غفير يتزاحم فى دائرة حول قرد غليظ قد أحكم تكميمه ومضى يلعب مع غلام صغير . وبعد دورات عديدة من الكر والفر . وحركات كثيرة متنوعة ، استولى ذلك الحيوان الشهوانى على الغلام وانهال عليه بدعابات مخلة بالحياء وسط التهليل العام .

هذا الفجور المنفر لم ينقصه شىء ، ولم يدخل عليه اى تخفيف شكلى ، ولا يستطيع غير المجنى عليه ان يقول هل وقعت الفعلة الفاحشة توقيعا تاما . وكان جميع المتفرجين يصفقون ، بل واجترات نساء على أن تشهد مثل تلك المخازى ، ومن بينهن امهات ممسكات ببناتهن ! .

* * *

كنت قد رأيت فى المسجد شبانا ينتهلون من الدين نفسه إفراطا حرمه الدين ، فقد قيّحت الخرافات والتشيع امخاخهم الفتية بمرض عضال ، ورأيت فى الخارج فتيات يتلذذن بمناظر الدعارة حيث ياتين ليفقدن عذراوية قلوبهن التى لا يعيرها الشرقيون من الاهتمام ما يعيرون عذراوية اجسامهن .

ويمكن لهاتين اللوحتين المتقاربتين اشد التقارب ان تعطياكم فكرة عن الاخلاق والتربية هنا . إن الحكومة تترك مثل هذا الفساد قائما وتتباهى بما ادخلت من إصلاحات فى الدولة !

وانحدر النهار ، وذُهِبَتْ اخر اشعة الشمس قمم الأضرحة وشواهدها ، فعرجت على المسجد ودخلته وسط خضم من الناس لالقى نظرة اخيرة على الرقصة المقدسة .

كان الجمهور قد ازداد عددا ، فقد انضم إليه جميع العمال بعد ان فرغوا من شغل اليوم . وجدت نفس الصخب ، ونفس الاختلاط ، ونفس الاحتشاد ، ولكن اللوحة قد امست خلابة رائعة . فإلى تلك السارية المزينة بالرايات شدت حبال طويلة كالحبال التى تشد سفينة راسية ، وتدلت من تلك الحبال عقود من المصابيح الملونة بهرجت المنظر باضواء متنوعة السطوع . وبدلا من تلك الحلقة الكبيرة التى كانت تدور حول السارية ، رايت حلقة خاوية راح جميع من كانوا يشكلون محيطها يتحركون ، كل فرد على حدة ، مميلا اعلى جذعه إلى اليمين وإلى اليسار

ثم إلى الامام ، وهو يصيح دائما : الله ! وكان من يسقط منتشيا يظل في وسط الحلقة او ينسحب بعيدا ليستمتع كما يروقه بتلك السعادة .

وبعد استراحة دامت لحظات قصيرة ، تغير المنظر ايضا . فقد جلس أكبر القوم جلالا وتقوى في أسفل السارية ، ولحاط بهم المتفرجون ، تاركين بين كتلتيهم فضاء صغيرا . ولم تلبث حتى انطلقت صيحات فرح تشبه زغاريد النساء المديدة ، رد عليها الاتقياء ، وإذا بثلاث فرق من الرجال ، رؤوسهم كاسية بحجاب طويل ، واجسامهم عارية إلا من إزار ابيض ، يدخلون الحلقة دون أن ندرى من اين اقبلوا ، ثم يجتمعون ويسفرون عن وجوههم ويؤلفون سلسلة جديدة . وكان كل شخص يحمل بكلتا يديه جرة صغيرة من جرار الدراويش ، ويقفز وهو مقوس الجسم مقدما ساقه اليمنى إلى اليسار قليلا ليدور على قدمه هذه ثم على قدمه الاخرى بالمثل ، وتلك حركة تشبه الخطوة الماسونية . كانوا يؤدونها وهم يرددون الهتاف الابدى : الله ! وبدا انهم يقدمون الماء لكل امرىء ، ولكنهم ظلوا يرفضون إجابة سؤال الحاضرين ، ولم يوافقوا على توزيع الماء إلا بعد قيامهم بدورات عديدة .

واتصل المشهد ، في اضواء المصابيح الملونة وضوء القمر الذى طلع إذ ذاك . وكان السكون ، وكانت الوجوه المطمئنة الخاشعة في ذلك المجلس ، وكان تنوع الازياء ، وذلك السِّرّى الغامض الرمزى ، وكانت تلك البوابات الخربة ، وهذه المئذنة الشاهقة القائمة كصنم معبود ، كان كل ذلك يضفى على تلك اللوحة الجديرة بريشة « رامبرانت » ، طابعا قاتما وطريفا لن تجد له نظيرا في غير ذلك المكان .

■ ■ ■

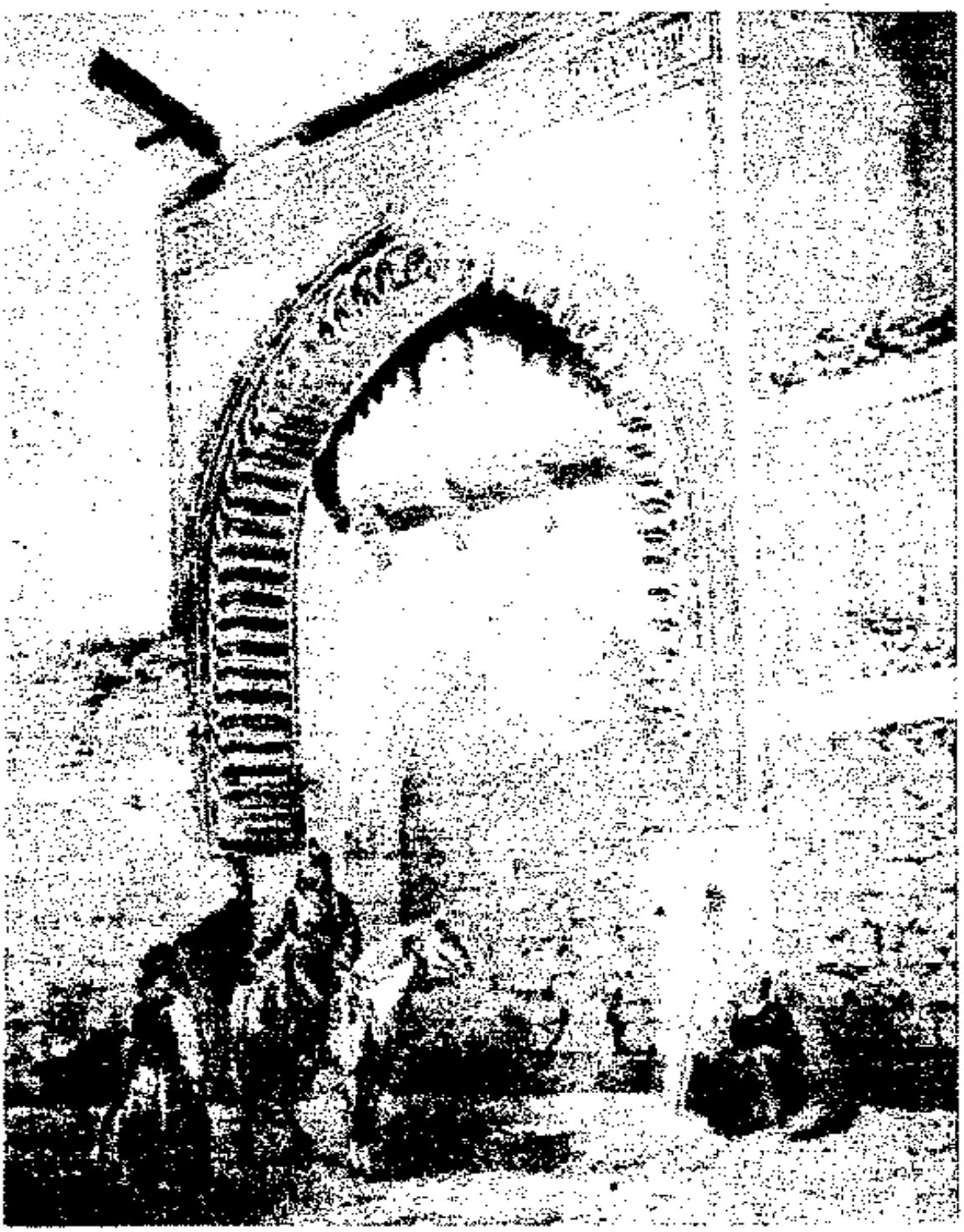

فارس أمام مسجد الظاهر بيبرس فى القرن التاسع عشر
عن كتاب الفن العربى لإدريس افندى .

سورى فى تاريخ دمياط الحديث

كانت دمياط تتمتع ، قبل انقضاء بضعة اعوام ، باهمية تجارية هى التى منحتها الشهرة والثروة . فحرية البناء فيها ، ومصنع غزل القطن ، ومصانع النسيج ، وكثرة السلع التى تستوردها من سوريا ، ومزارع ارزها الشاسعة بوجه خاص ، كانت تجعل منها إحدى مدن مصر الرئيسية ولكنها الآن فى ركود نتيجة للاحتكار الذى تمارسه الاسكندرية . ومازالت دمياط مستودع أرز الدلتا ، يضربونه فيها ويبيضونه ، غير انهم لا يبيعونه . فعلى اهل دمياط ان يشتروا الارز من الاسكندرية .

لقد قُدر للاسكندرية فيما يبدو ان تصبح المتجر العام لمصر ، فجميع السفن ملزمة بان تقضى فيها مدة الحجر الصحى ، حيث تجد ميناءً امنا ، كما يلوح ان جميع تجارة سوريا تريد ان تتجه هذه الوجهة الجديدة . ويروى اهل البلد ان تدهور دمياط قد بدا منذ وفاة « باسيلى فخر » ، وهو مسيحى سورى كان اول تجار المدينة .

وينبغى ان اذكر لكم شيئا عن هذا الرجل الذى يُعد بين اعلام مصر الحديثة . اخذ ابوه « حنا فخر » التزام جمرك دمياط فى عهد على بك الكبير ، وسرعان ما اثرى . وفيما بعد ، ضمنت له المكاسب التى جلبها للحكومة مكانة لدى « على بك » وضعت كل شىء تحت سلطته .

وورث باسيلى فخر تلك الوظيفة عن ابيه ، واحسن القيام بها ، فجمع منزلة ابيه ونفوذه ، بل وزاد ثروته الشخصية . وعينه عدة قناصل عميلا لهم فى دمياط ، واثناء الحملة الفرنسية ادى بعض الخدمات ، وانقذ حياة عدة فرنسيين ساعة رحيلهم ، مما عاد عليه بعد ذلك بوسام « جوقة الشرف » .

وفى عهد محمد على ، الذى عرف كيف يقدره ، اصبح باسيلى فخر اول شخصية فى المدينة . وكانت كل السفن المصرية التى ترسو فى الميناء ملكا له ، بل كانت التجارة باسرها بين يديه . وإذا كان لا يحكم المدينة فذلك لان الإمرة لا تسند لمسيحى ، ولكن الحاكم والقاضى كانا بلا انقطاع فى ديوانه العامر بالناس دائما . وقد توقف هذا الرخاء حينما نشبت ثورة اليونان ، فقد اصيبت ثروته بخسائر جسيمة ، ولم تكد تجارته التى كانت رائجة فيما مضى ان تفى بمصروفاته إلا فى عسر .

* * *

وكان « فخر » يتكلم بطلاقة العربية والتركية واليونانية والإيطالية ويندهش المرء إذ يحاول أن يعرف كيف استطاع ، مع العناية بتجارته واعماله ، وحياته في هذا الركن من العالم بعيدا عن وسائل التثقيف ، أن يجد متسعا من الوقت ليتعلم جميع تلك اللغات ويشتغل بآدابها . وكان يفهم الفرنسية فهما يتيح له أن يترجم كتبها . وقد تعلم الرياضة في كتب موضوعة بهذه اللغة .

رايت في مكتبته التي تضم افضل المؤلفات الفرنسية وعددا كبيرا من الكتب العربية والتركية واليونانية مخطوط ترجمة لكتاب فولتير « الاطلال » ومختارات وافية من « وصف السماء » لفرانكور مترجمة إلى العربية ، وبعض الفصول عن تاريخ مصر القديمة مما كتب المؤلفون المصريون . واطلعت كذلك على مجموعة من رسائل « باسيلي فخر » إلى عدد من اساقفة الشام والبطاركة تتناول اهم الموضوعات الدينية . إنك لترى أي الدراسات كان يؤثرها « فخر » ، وإنك لتقدر اي ثورة في الأذهان كان خليقا بأن يحدثها نشر تلك المخطوطات .

ولكن للأسف عاد « باسيلي فخر » في السنوات الأخيرة من حياته إلى جميع أوهام الادباء الشرقيين ، فراح يشتغل بالسحر ، وكست تعليقاته كثيرا من كتب التنجيم . واستدرجته علوم الغيب إلى دراسة الهيروغليفية ، فانكب عليها بحماس ، لا ليبحث عن تاريخ حضارة المصريين القدماء ، بل ليكشف الاسرار التي أراد الإله « هرمس » أن يستودعها الخلف عن طريق لغة جامعة .

وكانت دار « باسيلي فخر » ـ وهي اجمل دور دمياط واكثرها بذخا ـ مفتوحة لجميع الوافدين من جميع انحاء الارض ، ولا سيما الأوربيين الذين كان يحب عشرتهم . وما زال اهل دمياط يتحدثون عن كرم ضيافته ، وما أدى من خدمات عديدة . وقبل موته بلحظات قليلة ـ وقد توفي منذ بضع سنوات ـ قال للقسوس الذين اقبلوا يحملون إليه اخر الفروض :

ـــ لا حاجة بي إلى وسطاء يتشفعون لي لدى كائن عادل طيب يعرف ابعد ما تكنه افكاري خيرا مما اتذكره . دعوني اغادر هذه الدنيا كما عشت فيها .

■ ■ ■

من ذكرياتى فى الأقصـر

بعد ان القيت نظرة سريعة على اهم معالم مصر العليا والنوبة السفلى رجعت إلى « طيبة » حيث كنت اريد ان استقر لكى ادرس الآثار واقوم على مهل برحلات مختلفة فى وادى النيل وفى الصحراوين اللتين تمنطقانه بحزام من الرمل والجبال الماحلة . وبدا لى المقام فى الاقصر افضل منه فى اية قرية اخرى من القرى الرابضة بين اطلال العاصمة الفرعونية ، وقررت ان انزل فى المسكن الذى شيده البحارة الفرنسيون الذين كلفوا بان ينقلوا إلى باريس المسلة التى تحلى اليوم ميدان « الكونكورد » .

وكان ذلك المنزل المتواضع المبنى باللبن فوق طنف قصر « امونويوليس » اشمل المنازل راحة ، فقد كان المرء يشرف منه على منظر رائع ، ويحظى فيه بنسمات النهر البليلة ، وينتقل منه وإليه بمواصلات ناجزة ميسرة ، ويجد بعد هذا كله فى القرية ما يكفل حاجات الحياة اللازمة .

وسرعان ما تم استقرارى بفضل قلة الاثاث الذى يتطلبه بيت عربى ، فببعض البسط والنمارق والحصر كان لى افخر ديوان هناك . وكان اثاث غرفتى يتالف من مائدة وكرسيين اخذتهما من قاربى ، وبعض الكتب صففتها على الواح من خشب الجميز منزوعة من تابوت مومياء ، وخريطة معلقة على الحائط بين اسلحتى التى اصطحبها فى رحلاتى وادوات الصيد ، وسرير من الجريد تعلوه كلة . وهكذا كان لى فى غرفتين ما يفى بمقتضيات الحياة العامة ولوازم الدرس والحياة الخاصة .

وكنت قد استقررت باسمى العربى الذى اطلق علىّ عندما دخلت فى خدمة محمد على والذى احتفظت به اثناء الرحلة كما احتفظت بزى النظام ، لما كان ييسران لى من وسائل الحياة دون سبة بين المسلمين الذين كانوا يحيطوننى والذين كنت اعرف من لغتهم واخلاقهم ما يلائمنى ان اجرح شعورهم ومعتقداتهم .

وكان مجتمعى العربى المعتاد يتالف من ناظر قسم الاقصر ومن قاضى القرية وكنت اتحدث معهما فى كل شىء واستقى منهما تاريخ الاقليم ونظام إدارته فى عهد ما عاصراه من الحكومات التى اختلفت عليه

وكان مجتمعى الاوربى مركزا فى شخص يونانى يقيم على الضفة الأخرى بين المقابر المصرية ، حيث كان يعيش من تجارة الآثار ومن غلة بعض الاراضى التى كان يستخدم فى زراعتها عددا من الفلاحين أسعدهم أن ينجو تحت حمايته من اتاوات الشيوخ . وكان هذا الرجل الطيب واسمه « تراياندافيلو » ، قد ضحى بكل شىء فى سبيل استقلال بلاده وبعد ان فنى ماله فى سبيل ذلك الكفاح ، حضر إلى مصر تحت ضغط الأحداث واضطر إلى البقاء بها ، ويتحدث دائما عن رغبته فى العودة إلى وطنه ولكنه يجد الاطمئنان فى خلوته الهادئة فلا يغادرها حتى يموت .

وكان قد حط فى « طيبة » لإدارة حفائر مستر « سولت » ثم واصل التنقيب لحسابه الخاص اذ توفى القنصل الانجليزى واكتسب هو من طول الخبرة معرفة بالارض تؤهله ان يحدد لك مكان جميع اثار طيبة التى بيعت فى أوربا منذ اربعين سنة . وكان بفضل مقامه الطويل وتجاربه وما اتيح له ان يؤدى من خدمات للرحالة ، على صلة بجميع من اشتهروا فى العلم ، فكان حديثه ينبىء دائما بتفاصيل مفيدة . ومقابل المعلومات الخاصة بالآثار او النوادر التى كان يرويها لى ، كنت امده باخبار اوربا واحدثه عن عجائب حضارتها . وكثيرا ما كان ياتى لزيارتى حين كانت دراساتى تجذبنى إلى الضفة الأخرى بين المقابر الفرعونية ، وكان يسرنى ان اتقبل بدورى كرم ضيافته .

ولما كانت الحاجة قد اضطرته إلى التقتير فقد كان يعيش وحيدا كالراهب ، يحوك ثيابه بنفسه ، ويعد طعامه بنفسه ، ويصوم كل صوم فى المذهب اليونانى ويقرأ كتابه المقدس بانتظام ، غير متخذ بعد ذلك من تسلية إلا قراءة « هومير » او « هيرودوت » وبعض الصحف التى كان يرسلها إليه مراسله . لقد صالحنى هذا الرجل الطيب القلب ، الخدوم البصير بالامور والناصح فى حكمه ، صالحنى مع ابناء جنسه الذين يتعلم المرء بلا انقطاع ان يحتقرهم اينما رحل فى حوض البحر الأبيض المتوسط .

وإلى جانب هذه العشرة الثابتة ، كان يقبل من وقت إلى اخر الرحالة الذين كان يجذبهم إلى هذا الربع من مصر العليا حبهم للاستطلاع او الدرس او علاج ما اصابهم من داء او الاشتغال بالتجارة ، والذين كانوا كالطير العابرة لا يخلفون إلا اسمهم وبعض انباء البلاد التى اقبلوا منها .

ولكن بعضهم كان يقيم أمدا يقصر او يطول بين هذه الآثار ، يحفزهم من الدوافع ما استبقاني هناك . من هؤلاء الرواد من مات قبل أن يستطيع إدراج اسمه في سجلات العلم ومنهم من عجز أن يطلع على العالم بثمرة لعلمه ، فهو ميت رغم حياته ميتة ليست اقل إثارة للاسف .

وكان مجتمعي الشرقي ، باستثناء بعض الأشخاص ، متنوعا كمجتمعي الأوربي . فقد كان كبار الموظفين الذين يجيئون للتفتيش على الاقليم يلتمسون في اكثر الأحيان في المنزل الفرنسي مسكنا ارق هواء واضمن للراحة من المقام في مركب على النيل او تحت خيمة .

بين هؤلاء الضيوف العابرين كان « خليل افندى » حاكم المديرية ، وقد اتصلت به اتصالا وثيقا ، وعادت على صداقته بتقدير سكان المنطقة واعتبارهم ، وكثيرا ما كنت ادافع عن قضاياهم امام محكمته .وكان خليل افندى قويم النفس عادلا ، متدينا دون تعصب وليا نزيها ، يتحلى بصفات عالية لم يكن احد يفطن إليها في المنصب المتواضع الذى كان يشغله .

وفي تلك الفترة اقبل « ماهوبك » احد اصدقاء الباشا ، احد الذين زاملوه في حمل السلاح منذ الحملة الفرنسية ، فانفق في الاقصر ثلاثة أشهر لتنشيط إرسال محصول القمح إلى بلاد العرب . واراد ان ينزل في البيت الفرنسي ، ولكنه إذ علم انني احتل اجمل غرفتين فيه وانني غير مستعد للنزول عنهما لاى شخص كان .. ارسل فرجاني ان اذهب لأقابله .

دعوة يوجهها لك « ماهوبك » كان معناها أمر صدر لك وعليك ان تصدع به . لذلك لم يستطع المملوك الذى جاء يرجوني باسم سيده ان امضي لزيارته تصديق ما رأى من رفضي . لقد أجبته بوضوح أن « البك » إذا كان يريد لقائي فهو يستطيع ان يتجشم عناء المجيء عندى . وتكررت الدعوة ، وتكرر الرفض .

وحمل إلى الدعوة في اليوم التالى « الأب ترياندافيلو » الذى حدثني عن صديق محمد علي في عبارات شديدة الإطراء . ولما علمت ان « البك » كان مريضا واعرج يتعبه صعود درجات سلمي الشاقة ، قبلت دعوته منبئا إياه بالأسباب التي حدتني إلى اتخاذ قراري الجديد . واستقبلني « ماهوبك » بحفاوة شرقية واستبقاني للعشاء واطال السهرة للتحدث في التاريخ والسياسة .

وفي اليوم التالى ، بعد راحة القيلولة ، وريثما كان الخدم ينصبون خيمته ، رد « البك » الزيارة ، مريدا ان يرى الاعمال التي تستبقيني هكذا

وسط الفلاحين والأحجار ، محروما من كل وسائل الراحة التي توفرها الحياة الاوروبية . وباستعراض رسومي ، فهم كيف يمكن إعطاء فكرة واضحة صحيحة عن اهل واشياء بلد من البلاد إلى أولئك الذين لم تتح لهم سبل الرحلة . ثم حط الحوار ـ كما حط في الأمس ـ على حديث فرنسا وانجلترا وروسيا الذى كان شغل الاتراك الشاغل إذ ذاك كما هو اليوم

وبعد سفره علمت أن خازنداره قد منح خدمى كيسا (١٢٥ فرنكا) وكان « ماهوبك » لا يزال يتبع التقاليد الشرقية العتيقة ، فتعلل بانني ضيف محمد علي وبالتالي ضيفه هو وارسل لي صندوقين من أجود انبذة فرنسا واخر من المربى والحلوى التركية .

واثناء مقامه اقضي النظر في رسومي وفي ابحاثي مرارا بالحديث إلى ذكر ابهة المصريين القدماء وقوتهم . فرغبة في معرفتهم ، وراق لهذا الرجل الذى طالما مر امام آثار الوثنيين مبتسما في إشفاق واحتقار ان يتأملها بانتباه . وكوفئت سخرتي في مرافقته مرافقة الدليل ، فقد عادت على العالم بحفظ مدخل هيكل الكرنك الذى أمر الباشا باستغلاله في تشييد معامل البارود بالمنطقة . وإجابة لرجائي أمر « ماهوبك » بالبحث عن مواد البناء في غير ذلك المكان وانقذ الكرنك من تحطيم وشيك .

وكنت انفق جميع سهراتي تقريبا في صحبة هذا الرجل الطيب طيلة مقامه بالاقصر . وكان في النهار بعد تصريف الشئون يسأل قارئا ان يقرأ له « سيرة نابليون وحملاته » وهو كتاب كان قد ترجم اخيرا إلى اللغة التركية بامر الباشا وكذلك كتاب الامير « لمكيافيلي » . فإذا حان المساء وجبت مناقشة ما جاء بهذين الكتابين ، فمن تتبع مسير الامبراطور على الأطلس إلى الإجابة عن أسئلة طويلة ، مع عدم التردد في اى جواب لكي لا تفقد في نظر أمثاله قدر ما أوتيت من علم على قلته . وكان ينبغي ان تستطيع في الحال ذكر عدد سكان الامبراطورية الروسية بكل دقة وعدد رجال جيشها ومبلغ دخلها وحدود أرضها . وكان ينبغي أن تقول ـ دون ان يبدو عليك الاضطراب ـ كم تبعد الشمس عن الأرض ، وما سرعة الصاعقة أو سرعة قذيفة المدفع . وكيف كان زى جنود الإسكندر ، ولماذا لم يستخدموا البخار بدل البارود ، أو لماذا لا تتصل الحركة اتصالا دائما ، وما السر في عدم وجود حجر الفلاسفة .. موجز القول انه لم يكن لك بد من أن تملك معرفة موسوعية حتى ترضي جميع الاسئلة التي تثور اثناء الحديث .

وفضلا عن رغبته فى التثقيف كان « البك » سديد الراى كبير الحيدة والتسامح ، ذا نظرات شخصية فى الامور تخلع عليها مظهرا جديدا مما كان يعوض جليسه بعض الشيء عن ملل تلك السهرات الجارية على وتيرة واحدة والتى كثيرا ما كان يختتمها بسؤالى عما إذا كان الله قد وضع حدودا لذكاء الإنسان .

واما فى اسلوب الحكم والإدارة فقد كان « ماهوبك » يتبع اخطاء مولاه الذى كان معجبا به إعجابا حقيقيا . لقد اطلق فى المهمة التى جاء ليقوم بها فى الصعيد كل الشدة التى يفرط فى استخدامها عمال الباشا . وقلما كان يلجا إلى العقاب بالضرب ، ولكن الناس كانت تعلم انه يعاقب بالقتل دون مراجعة فكان الجميع يرتعدون أمامه .

ولقد اعطتنى علاقاتى تلك بماهوبك وكذلك علاقاتى بخليل افندى حاكم الاقليم منزلة عندهما كنت استخدمها فى سعة إذا استدعى الامر ان يحترم العادون حقوقنا .

■ ■ ■

337

Thanks Fumigation

الخيل ياخيالة والعدي واوراده والله سجيع ومانع ماجا بتواولاده يافهوة يام قرنفل
شرابك فيني شرابي على الطياره ياهواره يادنيا ياغضاره ودبيبه وين
اليام الله كلها لله والله العراق صعيب عامرا اسم الله على المنصور وشبابه من رقدت
العيان وترابه اسم الله على المنصور ومتيله من رقدت العيان وردميه ——
باجتمعوا اقاعد على كرسيها مستنيا سيدها يعطع فتاويها ياجتمعوا اقاعد على الكرسي
مستنيا سيدها لما يجي ويغني — قالولنا حاكم البلد غزلوه هدوا وطاقه وعكره دلوه
قالولنا حاكم البلد رحلوا هدوا وطاقه وعكره نزلوا ——
ليت المصلي مايصلي اليوم هم صلاته وانكى للنوم ليت المصلي مايصلي ابدا هم صلاته
وانكى رقده ادوا المصلي الاربع والسبعة يصلي صلاة العصر والجمعة ——
ذبح الذبيحة راح وخلاها جانوا سريع حيل دلاها ذبح الذبيحة راح وهملها جانوا
سريع حيل نزلها — فايت على الحداد نصف الليل مزاريق عايق دقها له زين
يافهوجي فاتش عليك عايق عوده مخبش يشرب على الرايق يافهوجي فاتش عليك .
تلبي عوده مخبش والبلبله دهبي

رثـــاء

(صفحة من وثائق إدريس افندى عن الأقصر)

الفـــلاح

الزارع المصرى طويل القامة ، قوى البنية ، متناسب الجسم ، منتظم التقاطيع صحيحها . تتوقد بالحياة عيناه السوداوان الغائرتان فى محجريهما والمرتفعتان بعض الارتفاع نحو الجبين ، وقد تعبران تعبيرا وحشيا لولا الأهداب الطويلة التى تلطف من قدحهما . وهو قوى الشفتين ، جميل الأسنان ، ينتهى وجهه البيضاوى المستطيل بلحية سوداء مجعدة غير كثيفة . وفلاحو مصر العليا نحاسيو البشرة جفاة الطبع صفراويو المزاج ، اما فلاحو الدلتا فانصع بشرة بكثير وذوو مزاج لمفاوى .

وفى مظهر الفلاحة وملامحها يجد المرء تشابها كبيرا بين شعب مصر الحالى والصور المنحوتة على الآثار القديمة . فكما تبدو لك تماثيل إيزيس ، تبدو لك مصريات اليوم . وهذا التشابه الذى لا جدال فيه يؤدى إلى استنتاجين طريفين ، أولهما يتعلق بالفن ويمكن استخدامه عند الحاجة مقياسا للحكم على ثمرات العبقرية المصرية ، وثانيهما ينتمى إلى العلم ويؤيد ما ذهبنا إليه آنفا من أثر المناخ فى العادات .

أما عن النحت فنستطيع أن نشهد بأن الفنانين فى عصر الفراعنة كانوا يستوحون الطبيعة مباشرة ، ويجيدون استيحاءها فيما نراه فى مصر من نماذج مانحتوا من تماثيل الآلهة . وأما عن العلم فنستطيع أن نقول إن تشابه نساء مصر القديمة ومصر الحديثة بعد امتزاج الدم الأصلى مرارا متعاقبة ، يؤيد الرأى الذى يرد ظهور الصفات الثانوية أى الأنواع الناشئة عن كل كتلة إلى الظروف الخارجية التى تحوط جنسا من الأجناس .

على أن جمال الفلاحة أقل دقة وامتيازا من جمال الفلاح ، ونظرتها أقل من نظرته ذكاء وعمقا ، وان كان وجهها حسن التقاطيع مشرقا حيا كوجهه . وسحر الفلاحة قبل كل شىء فى رقتها الحلوة . وهى طويلة القامة رشيقة مرنة ، خفيفة المشية حثيثة الخطى . ولكنها إذ تتزوج عادة فى الثالثة عشرة من عمرها ، لا تكاد تبلغ الخامسة والعشرين حتى تزوى نضرتها من اتعاب الامومة ومعاناة البؤس .

من ذا الذى يصدق أن من هؤلاء الأزواج الحسنى الملامح ، الوسام الطلعة يولد أبناء ضعاف مهزولون كسيحون ، دميمو الوجوه رهيفو الأطراف منتفخو البطون ـ مخلوقات تعسة تهلك غالبيتها الكبرى قبل أن تتم العام الأول من حياتها .

ينبغى التماس أسباب هذا الشذوذ فيما اجتمع على الفلاح من الفقر والقذارة والمعتقدات الفاسدة . لن يرى الناظر شيئا أقبح من هؤلاء الأطفال العراة الذين لم يغسلوا وجوههم فى حياتهم قط وقد حاصر الذباب جفونهم . وإذا أضفت إلى الأسباب الرئيسية ما يعتقد الفلاح من خرافات يطبقها ويستعين بها لشفاء أبنائه أو لوقايتهم من كل أذى ، وضحت لك علة الموت الذى يحصد تلك النسبة الهائلة من الشعب الزارع . ويواصل من بقى منهم على الأرض حياة مريضة حتى سن المراهقة ، وفجاة ، دون فترة انتقال تقريبا ، ترى أولئك الصغار الدميمين قد أصبحوا رجالا وساما وفتيات حسناوات ! .

وان من انشط العوامل المؤثرة فى الأطفال نظام التغذية . ولما كان الفلاحون جهلة وفقراء ، فليس فى وسعهم الحصول على غذاء صحى مقو . ويكاد غذاؤهم باكمله ان يكون نباتيا . فهو يتالف من قليل من خبز الذرة ، غير مختمر وسيىء النضج ، ومن الفول المسلوق ، والكوسة ، واللفت والتمر والفضل من الاعشاب . ويضيفون إلى ذلك من المواد الحيوانية شيئا من الجبن غير الدسم ، وقليلا من السمك وفى القادر جدا قطعة من اللحم ، ولكنها تكون فى هذه الحالة فاسدة وأضر بالصحة من عدمها .

والشراب الوحيد الذى يتناوله الفلاح ـ ولو كان ميسور الحال هو ماء النيل ، وفى القرى النائية عن النهر ياسن هذا الماء فى قاع الحفر التى لا تطهر أبدا فلا يقل غضاضة عنه فتكا بالبدن .

وليس لاسرة الزارع من ترف إلا تدخين « الجوزة » واحتساء القهوة . فالفلاح يدخن دائما تبغا محليا لم يجتز إلا تقطيعا بسيطا ، ذا عطر عذب جدا . والتدخين ـ كما هو شان كثير من عامة الشعب فى أوربا ـ يسكره ويقويه فى آن واحد . وأما القهوة التى يشربها الفلاح ، فهى مركزة وبلا سكر ، فتنتج آثارا من نفس النوع ، إنها تمنح أولئك البائسين القوة التى لا يستمدونها من أغذيتهم .

ومنذ يظن الزارع العربى انه ضمن لأسرته ما يقيم الأود ، يهوى من جديد إلى الخمول الأكمل ويعمل اقل ما يستطيع ان يعمل . وهكذا نراه تارة نشيطا لا تقعد له همة ، يخوض الوحل أو يظل فى الماء ليل نهار ، فى سبيل تلك الكسرة اللازمة من الخبز ، حتى إذا حصد المحصول نراه فى سكون شامل لا يتحرك أياما بتمامها ، قابعا تحت نخلته يدخن « جوزته » الابدية . هناك الماشية فى الطين والبيت فى حاجة إلى ترميم ، والرجل وزوجته وعياله بلا ثياب يرتدونها ، بل والخبز غير كاف لهم فهم صفر الوجوه هزيلو الاجسام ، ولكن الفلاح مع هذا كله لا يعمل إلا بالتهديد أو إذا ضربه عمال السلطة العليا .

ورغم الركود الذى ينفق فيه الفلاح حياته عن عمد ، فإنه فى الريف اشد حياة منه خمولا ، واقرب إلى المرح منه إلى الجد . يخاطبك محركا يديه فى قوة بإشارات معبرة ، ويحدثك متلفظا بلغته الخشنة الشديدة المخارج . فاللغة العربية فى فمه جزلة ، عنيفة الاصوات ، وعرة المقاطع ، على حين انها حلوة موسيقية رقيقة على شفتى صاحبته .

* * *

والفلاحة فى الواقع شديدة الصبر عن عاطفة ، خاضعة ، حنون . وهى تعاون زوجها فى عمله الشاق . وإذا حدث أن سجنت السلطة الزوج ، اخذت رضيعها وجاءت عند نافذة السجن تخاطبه وتتلقى اوامره ، ثم تمضى فتنفذها فى اشد وفاء . وما اكثر ما تجد التعسة من فرص تتجلى فيها دلائل إخلاصها . فإن الفلاح المصرى ، وقد ابهظته الضرائب ، موضع ضغط موظفى الباشا بلا هواده ، من اعلاهم إلى ادناهم : طالما ملك الفلاح قروشاً طمع فيها هذا او ذاك من طغاة المتسلطين عليه ، واجبروه على دفعها ، غير أن الفلاح يقاوم فى إباء ، فيكون « الكرباج » او السجن جزاءه .

ولا يستطيع أى إجراء ان يخلصه من العقاب البدنى . فهو عقاب مباشر ، وكل ما يستطيع أن يناله من تخفيف لا يتجاوز تقليل عدد الضربات التى توقع عليه . واما السجن فالمراة تستطيع ان توجز مدته أو تهون من قسوته ، وفى سبيل ذلك تستخدم جميع ما أوتيت من دهاء فى التصرف وبلاغة فى القول . ولكسب رضا الشيخ ، تبيع حليها إذا كانت لم تزل تحتفظ بشىء منها ، وتنزل له عن بقرتها أو جاموستها او حمارها .

* * *

والفلاح وزوجته يعيشان في عذاب متصل : فليس من حد يقف ادعاء الجباة ولا جشع رجال الإدارة واختلاسهم مال الاهالي . انهم قد ينتزعون من اسرة الفلاح غدا ما تركوا لها اليوم . ومهما حسب الفلاح من حساب ، فلن يستطيع تدبير ما يضمن له المستقبل .

إن سعر القطن والنيلة والقمح والارز المزروعة للحكومة يحدده الباشا كما يريد ، وإذا كان الاحتفاظ بسعر العام الماضى كفيلا برزقهم فمن المؤكد تقريبا ان سعر العام الحالى سينتزع منهم كل كسب سابق .

وليس للفلاح إلا ملاذ واحد إزاء ما ينهال عليه من الاذى ، الا وهو الإذعان للقضاء والقدر . وتلك عاطفة دينية قد تغلغلت في خلق الشرقيين الحاليين حتى ميزتهم بالتساهل والتهاون . إنه نوع من الاحتجاج العليل ينوّم ما أوتيت الهمة الإنسانية من توثب طبيعى ، ويضع محلها نوعا من الشعور السلبى الراكد وتلك فضيلة مشئومة تستتبع الأدواء التى لم تفلح فى ان تعالجها إلا علاجا فاسدا .

■ ■ ■

فـــلاح وفـــلاحة :

(بريشة : إدريس افنـدى)

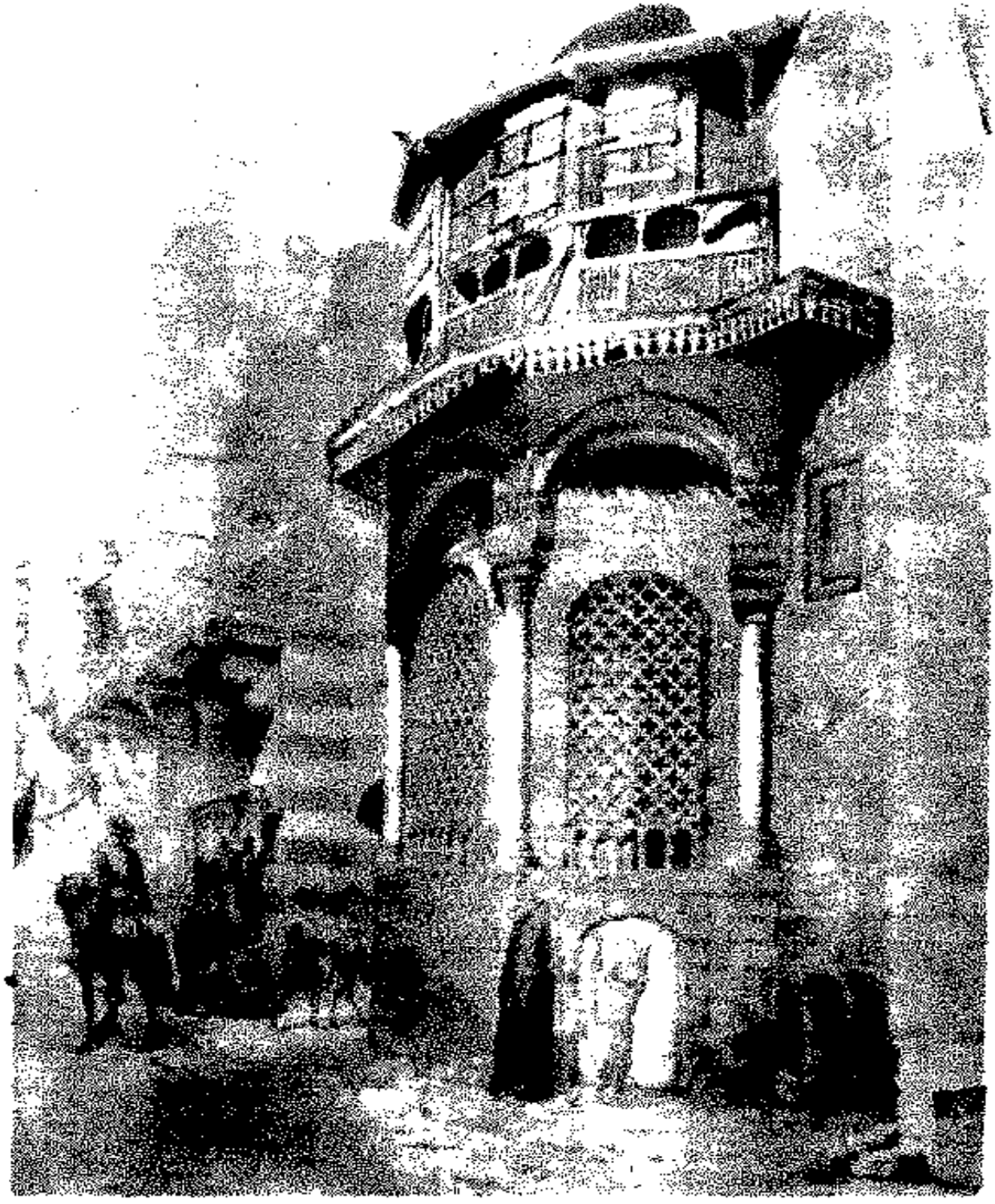

سبيل فى شارع أمير الجيوش

بريشة : إدريس افندى

■ الجـــزء الثـــانى ■

من محمد على إلـى إسمـــاعيـــل

● محمد على باشا ●

محمد علي

صـــــــورته

محمد علي رجل متوسط القامة ، بارز الجبهة ، صغير الفم باسم الشفتين ، غليظ الانف . وقد تؤلف هذه الملامح في مجموعها خلقة عادية ، ولكن خلقته تمتاز بسرعة التعبير ، وبمزاج متسق من الدهاء والتلطف . ويحوط وجهه إطار من لحية بيضاء جميلة تغطي صدره ايضا ، وهي موضع عناية قصوى . وله يدان كاملتا الحسن ، وذلك لون من الجمال يقدره الشرقيون كثيرا . انه قوى البنية ، انيق الهيئة ، يمشي في حزم وخيلاء ، وفي مشيته شيء من الدقة والنظام العسكري . وكثيرا ما يعقد يديه وراء ظهره ، فهو يحب أن يتمشى على هذه الصورة في جناحه كما كان يفعل بونابرت .

وقلما يرتدي الباشا ملابس باذخة . كان في الماضي يلبس دائما زي المماليك القدماء ، ولكنه منذ بضع سنوات استبدل بالعمامة العريضة - التي كانت ذات مظهر شرقي نبيل - الطربوش العسكري ، وبالجبب الفضفاضة الرائعة زي « النظام » . على ان ملابسه من البساطة دائما بحيث ظنه الكثيرون واحدا من حاشية الباشا ، لا الباشا الكبير بذاته .

وتتسم عاداته بطابع الوقار وحسن الالتفات كعادات كبار الاشراف ، وان كان هذا مما يتعلمه ادنى العبيد في الشرق بسرعة بالغة . وهو لا يحيط نفسه بجمهور من الحشم المسلحين كما يفعل سلاطين آسيا ، وإنما يحرس بابه موظف واحد يفتحه لكل قادم . وفي ديوانه يراه القوم لا يحمل سلاحا ، بل يعبث في العادة بعلبة تبغ ثمينة او بالمسبحة التي يصطنعها اهل الشرق .

ويروق للباشا لعب البلياردو والشطرنج والنرد ، وهو لا يهتم إذا لعب باصطفاء خصمه ، بل يختاره من بين صغار ضباطه بل ومن جنوده أحيانا ، ولكن عادته جرت على ان يتخذ خصمه في مباراة البلياردو من بين القناصل والرحالة الاوربيين . وما هكذا يتخيل الناس في اوربا صورة محطم المماليك وقاهر السلطان محمود ومجدد مصر ! .

شخصـــيته

الوالي شديد الولع بالمجد ، ولذلك يتحدث بكبرياء وشغف عن أيامه الماضية . انه كثير التفكير في البهاء الذى يحيط اسمه اثناء حياته . ويظن ان هذا الصيت سيعمر بعد موته

وهو حريص على ان تترجم له معظم الصحف الأوروبية ، ويبدو عليه الألم من النقد الهين او اللاذع الذى كثيرا ما تتناول به الصحف اعماله او قيمته الشخصية . ويوقن ان مهاجمات الكتاب له قد اساءت إليه شر الإساءة ، ويرد إليهم ـ إلى حد كبير ـ ما اصابه امله من خيبة . وقد روى شخص جدير بالثقة ان « حسين بك » قد سمع محمد علي ينسب معارضة فرنسا وانجلترا لمشروعات استقلاله إلى تأثير جريدة « ازمير » قبل كل شيء ، فقد اطنبت هذه الجريدة في إذاعة هجائه والافتراء على حكومته . واضاف الباشا قائلا :

ـــ إني لأعطى راضيا مليون ريال في سبيل منع هذه الجريدة من الظهور . وانها غلطة مني هي التي سمحت بوجود هذه الجريدة ، فقد كان محررها تحت تصرفي مدة طويلة ولكني صددته .

وقد سلبته انفعالات حياته السياسية كل راحة . فهو ينام قليلا ، وهيهات ان ينام نوما هادئا . ويسهر إلى جانبيه دائما عبدان ليعيدا عليه غطاءه الذى يدفعه عنه بلا انقطاع .

ورغم قصر الوقت الذى يخصصه للنوم ، فهو دائما في نشاط قلما تجد له نظيرا . في الساعة الرابعة صباحا تراه ناهضا ، واقفا على قدميه ، ليقضي نهاره كله مع نظاره او مستعرضا فرق الجيش او مفتشا على اعمال البناء او اعمال اى مؤسسة يروقه ان يراقب إدارتها .

وهو يجيد الحساب وان لم يكن قد تعلم الحساب قط . ومعروف انه كان قد بلغ الخامسة والاربعين من عمره حين بدا يسعى إلى تعلم أول مبادىء القراءة والكتابة . ويقال ان جارية من جوارى حريمه علمته حروف الهجاء ، ثم قام شيخ بتعليمه الكتابة . وتلك إحدى الخصائص المميزة لحياته ، وهي جديرة بالذكر حقا إذا فكرنا في المشاغل السياسية الخطيرة التي لابد كانت تستغرق ذهن هذا الرجل .

وهو جذاب في مجالسه الخاصة ، محب للاستطلاع ، تدل اسئلته على جهل ساذج مع إظهارها لكثير من الدهاء والفهم . وفي محادثته احيانا

كلمات موفقة تلقيها بديهة حاضرة . فقد اشاد احد القناصل ذات يوم بلوحة الرسام « هوراس فرنيه » التى تمثل مذبحة المماليك . والتى اثارت إعجاب الجميع فى متحف باريس ، فقال الباشا :

— يستطيع الرسام ان يجد نظيرا لموضوعه فى مذبحة مماليك بونابرت بمرسيليا .

* * *

عسف الإستبداد

وطبعه مستبد عنيف . ولكنه ـ كجميع الشرقيين تقريبا ـ يستطيع أن يملك نفسه فى معظم الأحوال ، وان يقود الامور بمهارة إلى الوجهة التى اعتزم بلوغها . وهكذا تجعل منه حدة مزاجه رجلا جسورا مقداما ، كما تجعل منه قدرته على كبح حدته عند الحاجة قائدا ماهرا وتعطيه فن الإمرة حسب الظروف .

وعلى الرغم من سرعة غضبه ، فإن طيبته طبيعية كامنة تحول احيانا دون توقيع عقابه . وتحمله سماحة قد تبدو لنا لونا من التهاون إلى العفو والرضا بل وإلى نسيان اقدح الأخطاء . وقد املى عليه هذا الميل نحو العدالة والحلم أهم القرارات الإدارية ، الا وهو القرار الذى يحّرم الكبراء من الامتياز الصارخ الذى كان يخول لهم معاقبة عبيدهم وتابعيهم بالإعدام . فقد أراد أن يكون ذلك القصاص مصدقا عليه من الوالى قبل تنفيذه ، واضعا بذلك حَكَما بين المتهم والقاضى ، وفترة اجلب للسلامة بين وقوع الذنب وتوقيع الجزاء .

على ان استبداده قد يشتط احيانا إلى حد عجيب . ونسجل هنا مثلين غريبين لذلك :

من بين النباتات النادرة التى وردت لمحمد على من اوربا ، كان غرس لزهرة الداليا . غرست تلك النبتة فى قلب الارض ، فى موضع تغمره اشعة الشمس الساطعة بعيدا عن كشك الباشا الأثير ، فازدهرت واينعت ، دون ان يتنبه السيد إليها . غير أن اجنبيا تحدث يوما عن جمال تلك الزهرة ، فلاحظ محمد على للمرة الأولى انها جميلة وامر بان توضع النبتة فى صندوق ، وتنقل تحت شجرة الجميز التى تظلل كشكه . وهنا اجترا البستانى على الاعتراض بأن الزهرة قد تموت من هذه العملية ، فقطب

الوالي جبينه واقسم ليدفنن حيا ذلك الارعن الذى تذوى على يديه هذه الزهرة التى استاثرت فجاة بإعجابه . وفى اليوم التالى كانت الدالیا موضوعة بعناية فى صندوق عريض فى ظل ا جميزة . ولكن الزهرة ، وقد اعتراها الذبول كانت قد اخذت تميل متراخية على ساقها الطويلة . فجىء بالبستانى ، وطرح ارضا ، وعلى الرغم من احتجاجه نالته ضربات عديدة بالسوط . فلما لم يسكت عن ترديد قوله بان النبات لا يمكن ان يطيع الاوامر كما يطيعها الناس ، اخلى طرفه .

ومن ضمن اشجار الفاكهة التى وردت من اوروبا كذلك كان نوعان او ثلاثة من شجر البرقوق ، اعجبته فاوصى بستانييه ان يعتنوا بها واثمرت إحدى الشجرات بعض الثمر . وبدا للباشا الذى تابع بشغف نمو هذه الفاكهة ان يتذوق شيئا منها وهى مازالت فجة خضراء ، فوجدها حلوة الطعم ، وامر مدير البستان بان يلتفت التفاتا خاصا إلى ثمرات البرقوق الخمس او الست الباقية . فكان ان احيطت الشجرة بشبكة تمنع الطيور من الوصول إلى تلك الثمرات الثمينة ، ونهض امامها حارس يبذل انشط المراقبة . ولكن ، من نكد الحظ ، ثارت عاصفة من هذه العواصف التى تكثر فى مصر وانقضت على محط ذلك الاهتمام الشديد ، فلما انجلت لم يكن على الشجرة إلا برقوقة واحدة ! على انها اصبحت ـ نتيجة للتعويض بلا شك ـ من الروعة بحيث كانت تخيل إليك انها استوعبت وحدها جميع العصارات التى كان مقدرا ان تغذى ثمرا وافرا . واخيرا اوشكت « البرقوقة » على النضج ، غير ان الباشا كان قد تغيب لبعض الوقت عن زيارة البستان وكانه نسيه . ومرت الايام دون ان ينبىء شىء بنزهة سامية عن قريب فى شبرا . واشتد قلق المدير ، فتداول فى الامر مع مرءوسيه ، وتقرر بالإجماع ان الثمرة قد بلغت تمام نضجها وانها إذا لم تقطف باتت فى خطر السقوط من غصنها او التلف على الشجرة . خلعوها إذن عن غصنها فى إحتفال كبير ، ثم غلفوها فى رقة بزغب القطن المندوف ، واودعوها فى علبة صغيرة ، وختموا العلبة وشيعوها مع رسول خاص إلى سموه . كان ذلك اثناء شهر رمضان ، وكان محمد على ـ على اثر وعكة خفيفة يتناول طعامه فى الحريم ، فقدمت إليه البرقوقة بين فواكه اخرى بيد خصى لم يعلم علم هذه الثمرة ومكانها من مولاه . وتناول الباشا الثمرة دون اى انتباه ، إذ لم ينبئه احد بامرها . واكلها دون

ان يخطر له انها واحدة من تلك اللواتى اوصى بها وصاياه الصارمة .

وبعد ذلك بأيام ، اقبل الباشا على البستان ، ومضى راسا قبل كل شيء نحو شجرة البرقوق . ولم يكن عليها برقوق ! وقبل ان يستطيع امرؤ ان يشرح للباشا علة ذلك الاختفاء المؤسف ، كانت قد اخذت الباشا رعدته العصبية وهى الظاهرة التى تصحب اعنف غضبه ، وكان المدير قد طرح ارضا ـ بإشارة منه ـ وعوقب بالعصا عند اسفل جذع الشجرة . واخيرا تمكن الرجل المسكين من ان يجد اذنا صاغية ، وجيء بشهود فسمعت شهادتهم ، واستدعى الخصى ، وصاح به الباشا منذ ان لمحه آتيا من بعيد :

ـــ هل انا اكلت برقوقة ؟

ـــ نعم يا صاحب السمو ، لقد قدمت لكم واحدة على مائدة الإفطار منذ بضعة ايام .

ـــ ولِم لَم تنبهنى إلى ذلك ؟

وإذا راى الخصى الحركة التى صاحبت تلك الكلمات ، اندفع إلى الجواد المسرج فى بذخ ـ جواد الباشا ـ وتوارى سريعا خلال الحقول قبل ان يحاول احد ان يتعقبه . وظل المسكين مختفيا عدة أيام . ولكن الباشا تكرم بالعفو عنه حينما تشفع له فيه بعض المقربين .

* * *

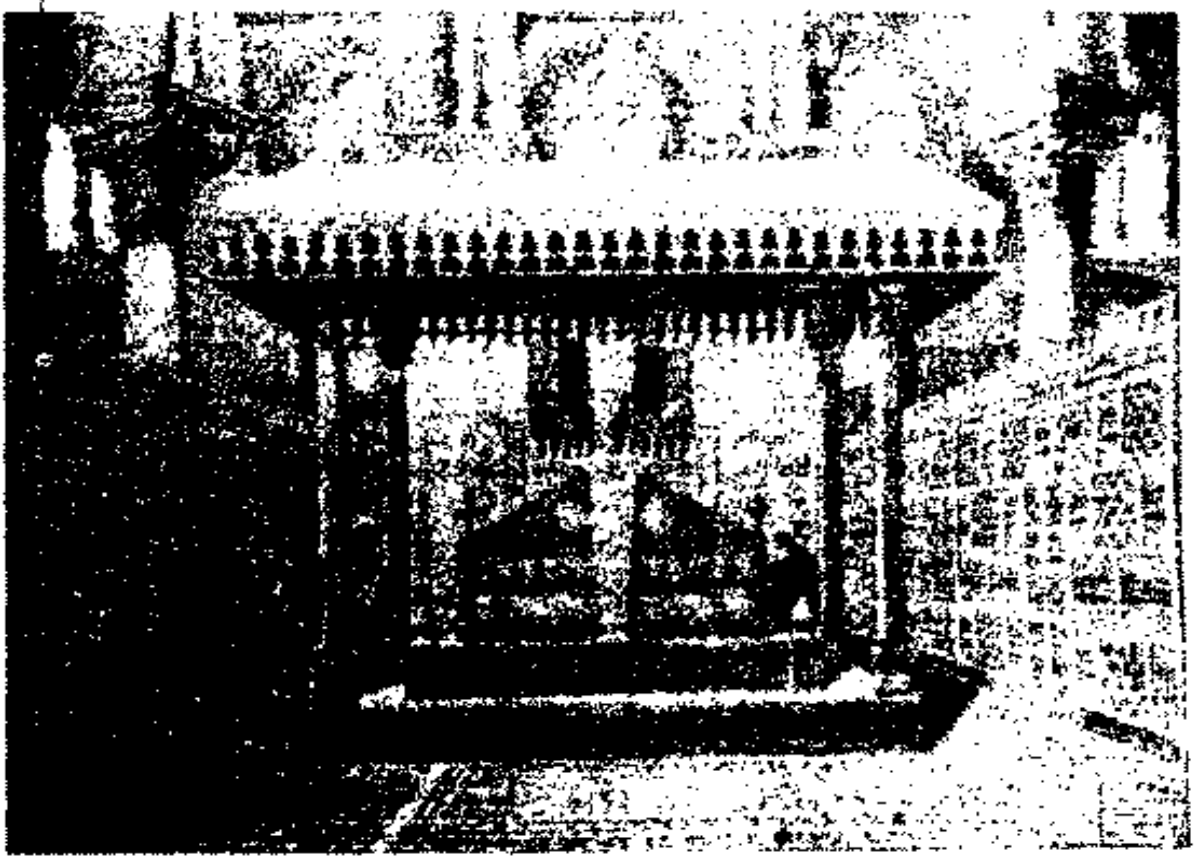

ولنبادر فنعلن أن الوالي ، رغم نزواته الاستبدادية ، قد برهن في ظروف كثيرة على ولاء جم ونبل صحيح . فهو لم يوافق قط على أن يسلم للباب العالي الثوار العديدين اللاجئين إلى ولاياته ، بل حمى في ورع - أثناء ثورة اليونان - أولئك اليونانيين الذين كانوا في مصر وابقى عليهم في وظائفهم . استنادا على هذه الشواهد العارضة ، ومع ذلك فإننا نتورط في الخطأ إذا قلنا ان في ذهن الباشا افكارا منطقية عن العدالة وان في قلبه حبا حقيقيا لها ، وانه قادر يوما على أن يشتغل اشتغالا جديا في ولاياته برعاية الحقوق الطبيعية للإنسان ، وإن كان قد مجده البعض لأنه أراد ان يفرض على جميع رعاياه بلا تمييز شريعة حامية ، ووصاية تقوم بها إدارة منتظمة للقضاء .

* * *

إن القانون الذى اذاعه محمد على ، والذى اطنب المطنبون فى الإشادة بحكمته وتمشيه مع روح الحرية ، لم يوضع يوما موضع التنفيذ . ويدعو الفلاحون محمد على باسم « ظالم باشا » . ولقد كانت تلك تضحية من ظالم باشا بصيته ، نزولا على مقتضيات مدح المادحين الذين حثوه على اتخاذه . ولذا بسرعان ما أهمل هذا القانون بعد تشريعه . وإذا كانت بعض اتجاهاته قد طبقت ، فإن ذلك لم يكن إلا فى مناسبات نادرة ، فى الأحو التى لم تكن فيها مصالح الباشا المباشرة او غير المباشرة تقع تحت طائلة نصوصه . وما كان يستطيع غير ذلك ، وإلا كان عليه ان يطيح اولا ، دون تردد ، بامنائه ، دعائم سلطته ، وان يحرم على نفسه عددا كبيرا من المظالم .

* * *

واضع القـــــانون ينتهكه :
جنـــــايـة مصطفى مختـــار بك

ولعل اول مجرم كانت هذه النصوص الجديدة خليقة بان تناله هو اهم محرريها ، « مختار بك » ، الذى رغم تربيته فى فرنسا لم يفقد شيئا من الاذواق الجنسية الشائنة التى يتصف بها اهل بلاده . [مصطفى مختار مولود فى مدينة قوله ايضا] . فبعد فراغه بايام عشرة من نقل تلك القوانين ، هاج غضبه إذ صد شهواته المنحلة فتى عربى من خدمه صدا قاطعا ، فامر دون رحمة بضربه حتى مات التعس تحت العصا .

ولقد راى ظالم باشا حين بلغه نبا هذه الحادثة ـ كما لا يزال يرى ذلك كثير من الكبراء فى مصر ـ ان « راس فلاح لا تساوى شعرة من راس تركى » .

وبالرغم من النصوص الصريحة الصارمة الواردة فى التشريع الجديد ، لم يكن على « مختار بك » من باس إلا ان يدفع دية قدرها ٥٠٠ قرش اى حوالى ١٢٥ فرنكا ، وهو مبلغ اقل من مرتبه عن يوم واحد . وهكذا ترى انه بهذا السعر يستطيع أن يقتل ، دون قلق ، اكثر من ثلثمائة وخمسة وستين رجلا فى السنة . ولعل هذا الحكم ـ فوق ذلك ـ لم يصدر إلا رعاية للمظاهر ، فليس من المؤكد انه قد تنفذ وان عائلة الضحية قد تمكنت من قبض ذلك التعويض التافه .

* * *

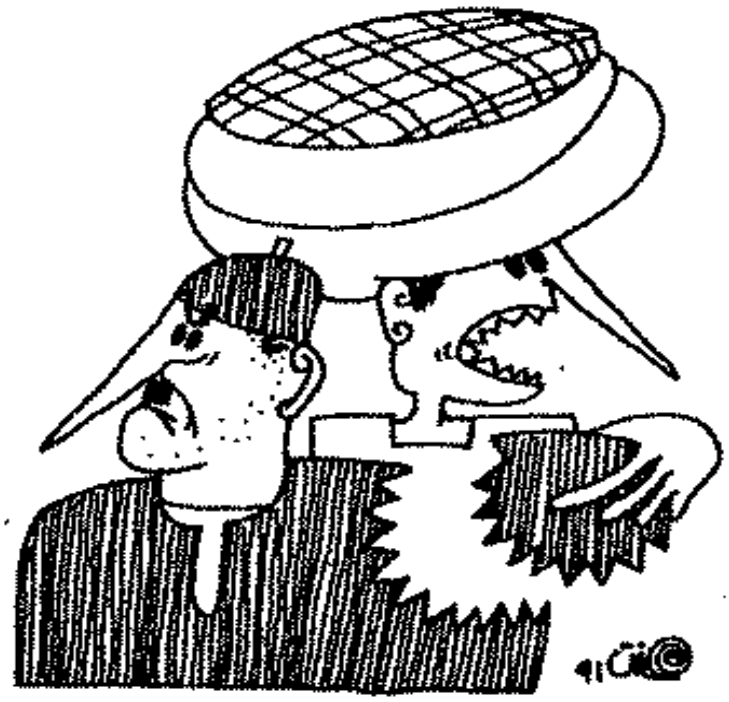

قتـل وتعذيب

وليست تلك هى الواقعة الوحيدة التى نستطيع ان نكشف عنها الحجاب ، بل إن هذا النوع من الوقائع متوافر : فلكى يثار لمعارضة مشابهة أو لسبب آخر لا مسوّغ له القى « سليم باشا » باحد مماليكه فى الماء ، وقتل « ماهوبك » احد مماليكه تحت العصا وفعل مثله « شكرى أفندى » . ولم تنل جنايات القتل هذه اى عقاب إلى الآن .

لقد انقضى عامان منذ نشر هذا التشريع الذى راق للبعض أن يروا فيه عربون عهد من المساواة المدنية والسلامة الشخصية لجميع اهل الولاية وسكانها الاجانب ، ولكن مازال رجال السلطة يعذبون الفلاحين بالقرميد الاحمر المحمى فى النار ، ومازالوا يسمرون اذانهم ، ويمزقون اجسامهم بضرب « الكرباج » لإرغامهم على دفع الضرائب والاتاوات للباشا « اكل الشعب » فهو خليق بهذا اللقب الذى اطلقه هومير على احد ملوك الاليباذة .

* * *

دســـتور الابـــتزاز

ان الاختيار الحقيقى لنظام حكم شرعى ، وتقليد الرعايا حق الرجوع إلى سلطة الدستور ذات السيادة ، وخضوع رئيس الحكومة وعماله للحكم الأعلى الذى يصدره عن قضاء نزيه ولا مهرب منه ، كل ذلك لو تحقق لكان شر ضيق يصيب إدارة الوالى واسلوبه فى التصرف . ولا شك فى انه استحق إلى حد ما لقب « ظالم باشا » الذى منحه إياه الشعب وقد اصبح على يديه فى درك من البؤس لا يستطيع معه أن يمنحه اقذع منه .

* * *

ودون أن نستعرض تلك السلسلة من اعمال الطغيان التى عادت عليه بذلك اللقب ، حسبنا أن نلاحظ ان روح محمد على فى فرض الضرائب والنهب وعدم النزاهة فى ابتزاز المال روح لا نظير لها . انه لا يود ان يدفع مرتبات لأحد ، لا للجيش ولا للموظفين ولا للعمال ، ويود أن يدبر امره بحيث يخدمه الجميع مجانا ما استطاع إلى ذلك سبيلا . فالضباط المدنيون والحربيون ، والجنود والعمال يلاقون اشد العناء فى تحصيل مرتباتهم واجورهم ، وقلما يقبضونها نقودا ، بل يجدون انفسهم مرغمين فى اكثر الاحيان على أن يقبلوها سلعا خارجة من مصانع الباشا ، مرغمين بعد ذلك ـ للحصول على نقود ـ على أن يبيعوا بثمن بخس تلك السلع التى حسبها عليهم الباشا بثمن باهظ .

لا توجد نقود فى خزائن صراف حكومى يقدم إليه امرؤ « تذكرة » اى إذن صرف ، وإنما هو يفتح ما لديه من مخازن للمطالب بحقه . ولهذا الأخير أن يختار ـ إذا كان ثمة مجال للاختيار ـ وان يخضع للسعر المفروض . ويتوجه الدائن الذى لا يناسبه ان يأخذ مقابل حقه بعض منتجات مصانع الوالى ـ يتوجه إلى المرابين الذين يخصمون ورقته المالية بتخفيض قيمتها الاسمية تخفيضا كبيرا تتقاضى عنه السلطة الصناعية ضريبة لولاها ما كانت تأذن بهذه المعاملة .

* * *

تدمير المعدات .. على حساب الجيش !

ويكفى ذكر هذا المثل الملحوظ بين جميع ما تفتقت عنه حيلة محمد على فى سبيل النوال دون أن يفتح كيسه ، وانه ليدل على خصب قريحته فى التلفيقات المالية : فبعد ان اخذ الاوربيون عكا ، رأى إبراهيم باشا تعذر الاحتفاظ بسورية إلى ابعد من ذلك الامد ، فارسل الامر إلى جميع القوات بأن تنسحب نحو مصر ، وأن تدمر قبل رحيلها جميع ما يمكن أن يستخدم ضدها . وهكذا هدمت الحصون ومعامل البارود واحرقت الخيام . وكسرت المدافع ، ودمر العتاد الذى كانت قد زودت به ، بل لقد ذهبوا إلى حد تكسير البنادق والسيوف التى يموت حاملوها من الجنود . وعندما وصلت القوات إلى القاهرة قدرت جميع الخسائر التى اسفر عنها هذا الإجراء الذى نفذه المرءوسون صادعين بأمر رؤسائهم تقديرا دقيقا وظهر أن قيمتها تعادل حصيلة مرتبات فرق الجيش لمدة ستة اشهر . واراد الباشا خصم هذا المبلغ من مرتبات أولئك الرجال الذين قاسوا كل عناء ومشقة . ولم يكن بد من أن يحتج سليمان باشا بشدة حتى يحول محمد على عن رأيه العنيد ويقنعه بالعدول عن ذلك القرار الغريب .

وفهم الباشا بعد لأى انه لم يكن على الاقل من حُسن التصرف ان يتعدى الحدود بهذه المصادرة الاستغلالية التى كانت خليقة بأن تثير سخط جيش لم يزل مصير الوالى متوقفا عليه بين لحظة واخرى .

مبدأ « الشعب كالسمسم »

ويبدو لنا فى وضوح ان وضع واحترام النظم التى تكفل حماية الضعيف والمظلوم شيء يتناقض مع تلك الميول . ولو قد توافرت نية فعل الخير واعتاق اهل مصر المسخرين وإسعادهم ، لما احتاج الامر بعد ذلك إلى محاكاة نظم الغرب واخلاقه ، إذ ان فى ايات القران من الأمر بالمعروف ما يكفى لهذا كله ، ولا اقتصر العمل على اتباع وصايا النبى واوامره . وبين المراسيم المفصلة التى جاءت فى الكتاب الشريف ما ينكر الغصب والاحتكار ويعاقب عليها عقاب السرقة تقريبا . ولكن يبدو أن محمد على استمد وحيه الفعال من المثل القائل :

« إنما الشعب كالسمسم ، ينبغى أن تطاه وتسحقه لكى تخرج منه

* * *

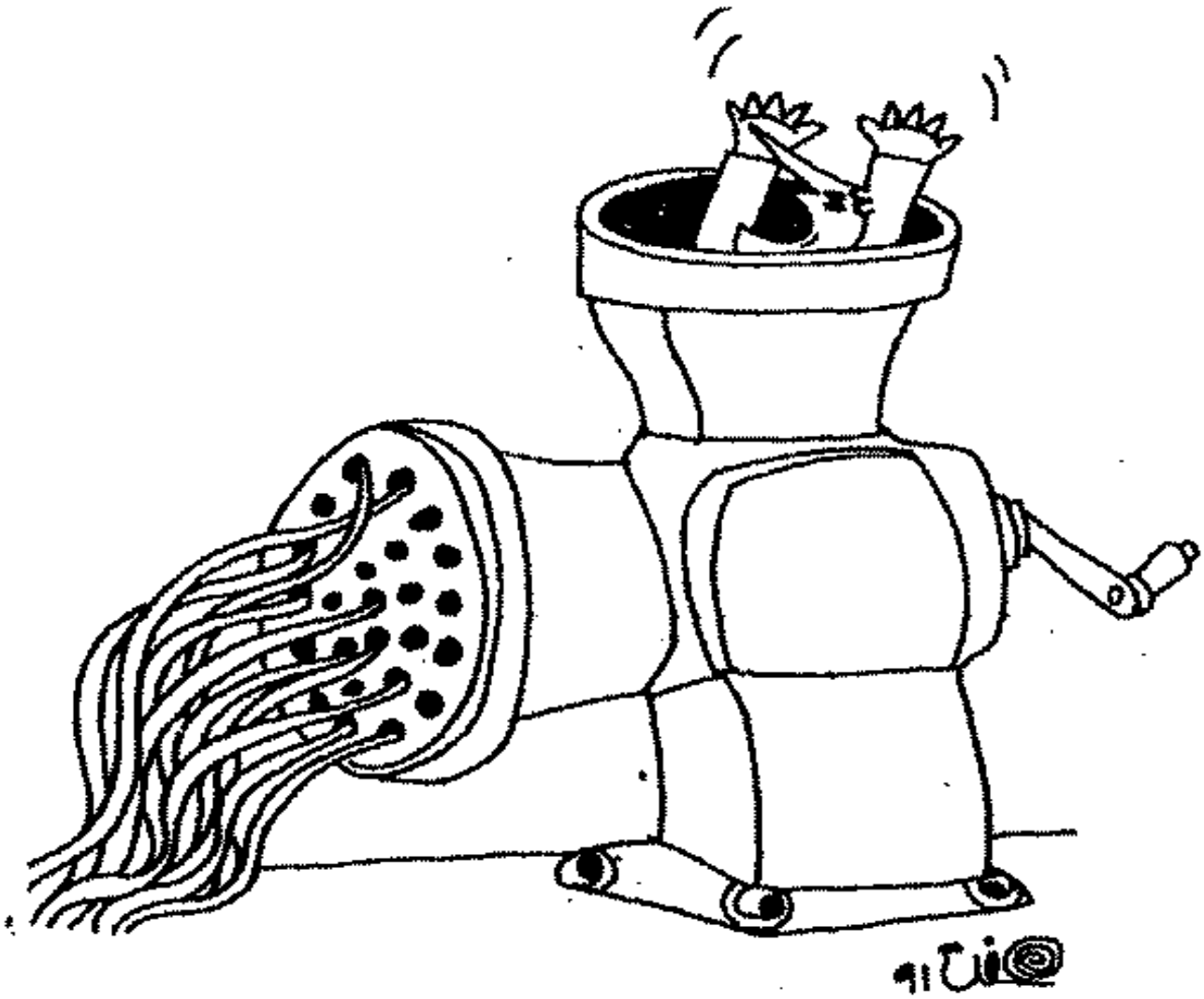

ثـورة الصعـيد

زاد محمد على الضرائب زيادة فادحة أثارت تذمر الأهالى . الفلاحون الذين انتزعهم الوالى من عائلاتهم ومن حقولهم وحشـدهم فى كتـائب الجيش أو المصانع ، باتوا يلعنون تلك النظم التى تعتصرهم دون أن تسفر عن أى مكافأة لهم أو أى نفع يعود عليهم .

انتشر السخط بين الناس . وانطلقت الثورة فى الصعيد فى أوائل سنة ١٨٢٤ إذ خطب أحد أولياء « دراو » فى الجمهور أثناء صلاة الجمعة والهب عصبية الملأ . وشاعت المصادفة أن تنضم إلى جموع الساخطين عدة فصائل من الجيش الجديد كانت سائرة إلى « سنار » لتحل فيها محل ما بقى هناك من الجنود غير النظاميين .. وهكذا كان الجيش عونا قويا للثائرين . وسرعان ما اقبل على حزبهم مئات من الفلاحين فبلغ عددهم حوالى عشرين الف رجل .

غير أن هذه الثورة فى مظهرها لم تنتج من العواقب الوخيمة على الباشا ما كان يتوقع المرء منها ، بل أدت على النقيض خدمة للوالى الذى بدا أنه من شدة البطش بحيث يستتب له الأمر . ذلك أن الثائرين ، وقد ساروا إلى غير هدف محدد ، تحت قيادة رئيس غير كفء لم يستمد شخصيته من غير التعصب ، لم يلبثوا حتى فقدوا فى ملاحم متفرقة نحو ثلث قواتهم ، وأجبروا على العودة إلى النظام وعلى الخضوع ـ بعد هزيمتهم ـ لاستبداد اثقل وطأة مما عرفوا قبل القيام بثورتهم .

* * *

الشعب يحاول عزل محمد على

وما دمنا قد سجلنا اللعنة التى تتردد على شفاه الفلاحين بلا انقطاع ، فلابد لنا أن نحاول تعليل تلك الواقعة التى أعارها الرأى العام اهمية كبيرة وضج لها ضجة شديدة فى حينها ، الا وهى المطالبة ـ المزيفة ـ بتثبيت محمد على .

بينما حاول المصريون معبرين عن شعورهم الإجماعى أن يسعوا لدى الباب العالى سعيا رسميا متوسلين عزل حاكمهم ، حدث فجاة تحول واضح فى اتجاه العقلية . وكان ذلك بطريقة سريعة وفعالة . ففى منتصف نوفمبر عام ١٨٠٤ ، استدعى الوالى إلى القاهرة جميع نظار وشيوخ الأقاليم المصرية واجتمعوا فى القلعة ، حيث خطب فيهم « حسين باشا » ـ الذى اسندت إليه مهمة رئاسة الجلسة ـ خطبة بليغة عن ضرورة إدخال إصلاحات فى إدارة الأقاليم للتخفيف عن الشعب ، فأنار امام سامعيه افقا سعيدا . وبعد تلك الخطبة الخالبة ، تبسط فى اخذ رأى كل منهم ، وسمع المطالب والرغبات ، واغدق الوعود على الجميع ، ثم تصنع انه مضطر إلى مغادرة الاجتماع فى الحال على اثر تسلمه رسالة من الوالى ، ورجا النظار والشيوخ ان يختموا سريعا باختامهم فى الجزء الأسفل من ورقة ، تعهد بانه سيكتب عليها محضر مؤتمرهم متوخيا الأمانة فى ذكر جميع مادار . ولم يجرؤ أحد من الموجودين على الرفض . وقام الباشا الأمين بارتكاب تبديل « برىء » ، فقد كتب على الورقة البيضاء الممهورة بالاختام التماسا من ممثلى الشعب المصرى للسلطان عبد المجيد يرجون فيه تثبيت محمد على واليا على مصر . ورفع علماء القاهرة على اثر خديعة اخرى مطلبا لنفس الغرض . فاى ثقة يمكن ان تعار هذه العرائض اللطيفة المادحة ، التى افسد بها صانعوها أمانى كثير من البسطاء ؟ .

* * *

ابن « قـولة » البســار

إلى جانب كثير من الملكات الملحوظة ، يتحلى محمد على بصفات الرجل الفاضل فى حياته الخاصة . إنه أب بار ، وصديق امين ، ويندر ان تجد بين الامراء الشرقيين مثل قصده واعتداله فى شهواته ونقاء اخلاقه . وتضفى عليه حساسيته الكبيرة شيئا مؤثرا يكتسب به فى يسر عطف المحيطين به .

لقد اثرت وفاة أولاده فى نفسه اثرا عميقا ، وكان الناظر إلى وجه هذا الاب يستطيع أن يتابع اثناء امد طويل ما وسمه به الحزن من علائم الالم . وكثيرا ما ذرف دمعا سخيا عندما فقد رفاقا له فى الحياة العسكرية . وقد اشرك فى سعده عددا كبيرا من اتراب الشباب ارتفعوا منزلة واغتنوا بفضل حظوته . ووجد بنو وطنه لديه ترحيبا كريما دائما .

وظلت ذكرى مسقط راسه عزيزة عنده ، ويا طالما اظهر عاطفته واهتمامه نحو الربوع التى درجت فيها طفولته ! ويقال إن رعاياه المولودين فى « قولة » معفون من الضرائب ، لانه يؤديها عنهم للخزينة . ويقال ايضا إنه اصدر الأمر بحفظ بيت ابيه وعدم التعرض له باى تغيير ، وما زال يعيش فى ذلك البيت اقرباء له قد غمرهم بنعمه .

* * *

الشـيخ الشـــاب

يجب الباشا أن يذكر انه يبلغ من العمر سنا اكبر مما يبلغ فى الواقع ، لكى يلفت نظر الناس إلى الفتوة التى مازال يتمتع بها . ففى عام ١٨٣٦ كان يقول إنه بلغ الثالثة والسبعين ، مما يرجع بمولده إلى عام ١٧٦٣ على حين انه قد ولد عام ١٧٦٨ او ١٧٦٩ .

ومن نافلة القول أن نذكر صفاته العسكرية . ويكفى ما يحدثنا به عنها المركز الذى بلغه . لن نضيف سوى القول بانه فى حياته الخاصة كثيرا ما دفع الشجاعة إلى حد التهور . ولم تكد تنقضى الآن اربع سنوات او خمس منذ راه القوم يمعن على ظهر جمل فى رحلات طويلة شاقة وسط الصحراء ، او يتحدى جنادل النيل ، ليزور « فزوغلا » ، أى يبتعد عن عاصمته ستمائة فرسخ .

× × ×

في مصاف الأبطال !

يستفسر الباشا كثيرا ـ وهو من انصار الجديد ـ عن أمم أوربا ، تلك التي يحاكيها في شيء من التصنع ، بل ويحاكيها في اخطائها ايضا . وعلى الرغم من تلك النعرة ، مازال وطنه يؤثر تاثيرا ما على افكاره وسلوكه . فهو يتحدث في حماس عن مقدونية ، وعن الاسكندر بطله الاثير ، وعن البطالمة ، وكانه قد اصبح من اعضاء الاسرة لمجرد انه خرج من نفس الارض .

ذات يوم روى بعضهم على مسمع منه لمحة من حياة الاسكندر ، فصاح في فخر : « وانا ايضا من فيليبية » (هكذا يدعو الاتراك ارض مقدونيا ، نسبة إلى فيليب ابى الاسكندر) .

ونابليون محل إعجابه كذلك . ولكن البطل المقدوني يستاثر اكثر منه بلب محمد علي ، نظرا لما ذكرنا من روح اعتداده باسرة يظن انه احد افرادها . وترجمة حياة كل من هذين العلمين هي مطالعته المعتادة . غير انه يضيف إلى موضوعات تاملاته ايضا كتاب « الامير » لمكيا فيلي ، مازجا امثلة البطولة بدهاء السياسة ، وقد امر فترجم له هذا الكتاب خصيصا .

* * *

مصر وسيلته لا غايته

ولعل الآراء لم تتضارب في الحكم على رجل تضاربها في الحكم على محمد علي . فقد راى البعض فيه بطلا جدد عهده مصر ومدنها ، على حين جعل منه الآخرون مغامرا بارعا سعى للوصول إلى السلطة لغرض واحد هو السيادة واستغلال البلاد لمنفعته الشخصية لا اكثر .

ومهما يكن من امر تناقض هذه الآراء ، فمن الواضح ومما ينبغي ان يعترف به الجميع أن محمد علي مدين بمكانته وصيته لشدة فطنته ، واطراد مثابرته ، وقيادته الشاملة ، وعزيمته الكبيرة .

لا شك في أن محمد علي رجل ممتاز . ولكن هل كان غرضه حقا هو سعادة مصر ومجدها ؟ وهل حلت حكومة إصلاحية محل طغيان المماليك ؟ على هذا التساؤل سنحاول ان نلقي بعض الأضواء .

من الخطأ ان يقال إن مصر قد تمدنت ، فهى لا يمكن ان تتمدن فجاة بهذه الصورة . إنما المدنية محصول سلسلة من العمليات المتتابعة ، ولا يمكن ان تاتى ارتجالا فى ربع قرن . وإذا لم ننظر إلا للنتائج فى تقدير الامور ، فإن المدنية تنتج رخاء مازالت مصر للاسف بعيدة عن أن تحظى به .

من الحق أن محمد على حين اراد إدخال تجديداته فى البلاد قد راعى العادات والمعتقدات والاوهام المتمكنة المستفحلة ، ومن الحق ان غيرة السلطان المتوجسة قد اقامت فى سبيله عقبات يكاد ان يستحيل تخطيطها ، وانه كان عليه ان يتابع اعماله بان يجند جيوشا ويجمع ضرائب لا تتناسب مع طاقة البلاد الطبيعية ومواردها ، وانه كان عليه ان ينظم البلاد بان يلقى الاقاليم فى الفقر كى يغذى حروبا لم تكن لتعود عليه إلا بالمجد الاجوف . يالها من وسائل عجيبة لتحضير البلاد ! .

لقد اعتصر مصر بعنف انهكها ، وتعقب المصرى فى صرامة شديدة ليجعل منه جنديا حتى لقد كانت القرى تقفر من اهلها كلما اقترب نحوها رجال التجنيد . على ان وجهة تفكير الباشا بين هذه المشقات جميعا لم تكن تخفيف بؤس الشعب ولا إصلاح المفاسد التى بخسته قدره ، ولا تربية امة جديدة اقل ذلا واكثر ذكاء .

* * *

لقد انشا محاربين هزموا الوهابيين والعثمانيين ، وانشا بحارة وبنائين وعمالا ، واقام مخازن للسلاح ومصانع ومدارس ، ولكن هل صار الفلاح اكثر نظافة واوفر غذاء واحسن اخلاقا وتربية ؟ لقد بات الباشا يتصرف فى رؤوس مال كبيرة ، ولكن كيف حصل عليها ؟ انه لم يحترم شيئا : غصب مخلفات المماليك والمساجد والاوقاف والاملاك الخاصة ، دون تمييز ، ومنذ ان اصبح السيد المطلق لوادى النيل الخصب ، غير زراعته وإدارته سعيا وراء غرض واحد هو زيادة موارده الخاصة .

ولقد اضاف إلى استيلائه على الارض احتكار الصناعة والتجارة ، فغدا المالك الوحيد والصانع الوحيد والتاجر الوحيد . ومن هذا السلطان العريض لم يستخرج سوى ابهته الشخصية . لم يستمد من ذلك كله إجراء فعالا حاسما ضد ما يرسف فيه شعبه من بؤس وجهل . بل ولم يعمل فى مصلحة المنشات التى اسسها حربية كانت او بحرية او صناعية ، إذ

لم يقدر مستقبلها ببعد نظر ثاقب حقا ، ولم يرصد عددا كافيا من التلاميذ للنهوض بها ومواصلة نشاطها بعد موته .

لقد استدعى محمد على من اوروبا عمالا فحضروا وبنوا سفنا واداروا ورشا مختلفة ، ولكن اهم ما فى الامر قد اهمل ، فانهم لم يدربوا إلا عددا قليلا جدا من العمال الذين يصلحون للحلول محلهم .

* * *

أين تربية الشعب .. ؟

انشئت المدارس لتحقيق غرض عسكرى محض ، وتخرج فيها نفر قليل من المؤهلين المقتدرين . وكيف كان يمكن أن يأمل المرء منها غير ذلك ؟ لم تكن توجد هناك العناصر الأعدادية ، وكان ينبغى فى طفرة رفع اشخاص ـ لم تتلق عقولهم تلك الثقافة الأولية التى تنتقل فى اوربا من جيل إلى جيل بانتقال الحياة ـ إلى مرتبة استيعاب العلوم . إن صنع اطباء ومهندسين وامثال اولئك وهؤلاء من شبان لم يكتسبوا المعارف العديدة المجردة والاستعدادات الملائمة التى ينقلها إلى نفس المرء تعليم تمهيدى تنمو تحت تاثيره ملكات الصبا ، تلك الذخيرة التى لابد منها لطالب الدراسات العليا .

إن صنع اطباء ومهندسين من شبان لم يكتسبوا ذلك فحسب ، بل ما تخيلوا يوما وجود المفاهيم التى اصبحت شائعة لدى طلبة المدارس الدنيا والعليا فى بلاد الغرب ، وإن محاولة تكوين عقول واعية ـ فورا ـ من مدارك ناشئة جانبت إلى اقصى حد مختلف درجات التعريف بمبادىء العلوم هذه التى باتت تحلق فى جو المجتمعات التى تحضرت فى بطء بحيث يبدو أنها افكار وراثية لدى الفرد يستنشقها منذ مولده ، إن تصورا للامور فى مثل هذا التهور لم يكن من شانه ان ينتهى إلا إلى الإجهاض .

لم يعرف محمد على فى حياته اى تربية أولية ، فورطه فى الخطا اتخاذه من نفسه مثلا ، واتباعه غريزة السيطرة . بدا له انه مستطيع ان يصنع العلماء كما جند الجنود بمجرد قوة إرادته ، على حين انه لو تمشى مع طبيعة الأشياء لاستطاع ـ وكان ذلك اقصى ما يبلغه ـ ان يعد لامته من بعده ، بمعاونة الاساليب الخاصة لكل فرع من الفروع ، فئة متخصصة

من الشعب قادرة على ان تفهم النظريات وعلى ان تحاول تحقيقها .

لقد بلغت استهانته بالتعليم ، إلى اخذه بعض التلاميذ من مدرسة الفرسان لضمهم إلى خدمه . وفي عام ١٨٤٠ تخير ثلاثة من افضل طلبة الالسن ليعينهم طهاة تحت رئاسة كبير طهاة قصره ، وهو فرنسي .

* * *

تمييز الأتراك وتسخير الفـــلاح

لم يفكر محمد على قط فى تمكين الشعب من التحرر . لقد احتقر هذا الشعب دائما واحتقر لغته .. وجميع الرتب فى الجيش من نصيب العثمانية وعبيدهم ، وكذلك الحال فى المناصب العامة .

أما المصريون ، شهداء الدولة ، فهم الالعوبة الدائمة فى أيدى رجال الإدارة ، اصحاب الأمر والنهى ، والتصرف فى قوم جهلة لا نصير لهم ولا خوف من شكواهم وتذمرهم .

وهكذا يغش رجال الإدارة الزارع عند تقدير كمية ما تغل ارضه ، بموازين ومكاييل زائفة . وإذا حل أوان البيع قيل للفلاح دائما انه لم يجن إلا قطنا ردىء الصنف من الدرجة الثالثة . وفوق ذلك ، يستطيع عدد غفير من الموظفين ان يطالبوه مرارا بدفع مبالغ من المال ، فإذا امتنع كان جزاؤه الضرب بالعصا ، وإذا اذعن ودفع فوراءه الكرباج ايضا لإرغامه على دفع مبالغ اكبر . وهم ياخذون الفلاح فى السخرة ، وبدلا من أن يدفعوا له اجره يقولون له ان قريته مدينة للحكومة ، وتلك شريعة التضامن ! .

* * *

البـؤس لمصـر الغنيـة

ولا يرجع سوء حالة مصر المالية إلى الحروب المتعددة الطويلة فحسب ، بل إلى الإصلاحات التى لم تفهم فهما صحيحا وإلى المشروعات التى لم يحسن ولى الأمر تقديرها أو تعجل فى تنفيذها ، وإلى رذائل الإدارة ، وجشع الموظفين ، فإن هذا كله مما يدمر الثروة العمومية . وإنها لعقبات فى سبيل رخاء البلاد ، تضاف اضرارها إلى مصائب الحروب ، وتواصل عملها الفاخر اثناء السلم .

وإذا ازداد رخاء المحصول في عام ، ازداد بؤس المصريين ، لأن محمد علي يقوم إذ ذاك بعمليات أوسع . فمثلا في سنة ١٨٢٩ كان الشعب يموت من الجوع بينما تكدست جبال من الغلال تحت امرة الباشا دون ان يكون للمصريين التعسين الإذن ولو بشراء شيء منها .

* * *

مـاذا عمـل لمصـر .. ؟

لقد قنع محمد علي بأنه جعل الصحف الأوربية تضج باسمه ، وانه اخضع الشعوب المحيطة به وارهب السلطان في اسطنبول . لقد وجد انه هكذا أدى رسالة كبيرة فلم يشتغل بسعادة مصر إلا ثانويا وفي الحدود التي تكفل لمطامعه وسائل تحقيقها .

وبعبارة اخرى إن محمد علي ـ هذا الرجل الذي هيأته الاقدار لانتشال مصر ! ـ لم يعِ تمام الوعي مدى اعماله : لقد اقبل ليشيد ركنا تهدم في بناء الشرق ، فتناول بضعة الأحجار التي سقطت من هذا البناء ، وبنى في عجلة مسكناً غير ذي اجل بدلا من إقامة صرح جديد كان ينبغي ان يشيده المعماري الحق .

وجميع تصرفاته تحمل هذا الطابع ، طابع العمل المؤقت الاناني ، الذي يبدو عليه حتما لون من الإلهام . إنه لم يحم الزراعة قط ، وكان تطلعه للكسب وحده هو الذي دفعه ـ فيما يظهر ـ إلى ان يعطي للشرق مثلا نفعيا من الطرق الاوربية في الزراعة والصناعة . ومع ذلك فالمرء يتساءل كيف اتخذ الجندي المقدوني هذا السبيل ، وكيف ادرك الرجل الامي ضرورة الخروج على المألوف التماسا للموارد والتماسا للعظمة .

* * *

ان الناظر إلى جميع الأعمال التي زخرت بها حياته ليرى واليا متلهفا إلى المجد لا مشرعا يضع اساس الرخاء الذي ينبغي ان يسود من بعده ، ولا مجددا يسعى إلى إقامة العدل وتشكيل مواطنين صالحين لاعمال السلم من ناحية ، مدربين على اساليب الدفاع من ناحية اخرى ، ولا وطنيا يبث حب الوطن في نفوس الشعب ويشعرهم بان بلادهم عزيزة عليهم . هو يعمل دون أن يكون مستقبل الشعب هدفا له . وحكومته حكومة فردية لا تستمد قوتها وهيبتها إلا من شخصه .

* * *

هـــذا الإجهـــاض ..

ولو أن محمد علي توخى العمل بطريقة متجانسة منطقية ، لكان عليه قبل أن يجعل من مصر بلدا فاتحا ، أن يجعل منها بلدا تاجرا ، زارعاً ، سعيدا . وكان عليه أن يتبع برنامجا كاملا من بث حب القوانين في شعبه ، وحب النظام ، وحب الخير العام ، والثقة في التجديدات ، بدلا من أن يفرض عليه بالعنف ما يعود بنفع مباشر لشخصه . كان ينبغي عليه الإقناع لا الضغط واستخدام القوة الفكرية لا القوة الغاشمة . وكان عليه ألا يصدر في الوظائف العليا عن إيثار صبياني او دسيسة او نزق ، بل ان يسندها إلى الخادم الحق وصاحب الجدارة .

لقد كانت الزراعة والصناعة خليقتين بأن تصبحا موردين من اخصب موارد الثروة والرخاء لمصر لو انهما وجدتا من الحكومة تشجيعا ومن النظم حماية ، ولكنهما باتتا ضحية المصالح الحربية ، حكرا لمنفعة الباشا وحده ، فلم تفيدا شيئا من نشاط هو في الواقع ظاهري اكثر منه حقيقيا ، وسرعان ما وقف نموها .

جملة القول ان محاولة عملاقية قد اجريت ، ولما لم تكن قائمة على أساس من الخبرة الكافية فقد أحدثت على الرغم من جميع الظروف الموانية ما يحدثه إجهاض رهيب من الآلام العنيفة والإنهاك الشديد . لقد أدى محمد علي مهمته ، وهو الآن مازال على قيد الحياة ، واقفا على اطلال عمل كان يبدو انه مهيأ لأجيال قادمة ، يشهد حكم الخلف عليه .

آخـــر أيـــام محمـــد علي

كان الأطباء قد نهوا محمد علي من ان يرى نساء حريمه . بيد ان ابنته التي كان يحبها حبا جما والتي كانت تسعى دائما إلى ان تكون ذات تاثير كبير عليه ، كثيرا ما كانت تدعوه إلى قصرها حيث تجعل في خدمته جواري من الفتيات الجميلات كن ينسين الشيخ نواهي أطبائه . وكان يعاود زيارة ابنته مرارا ، حتى إذا نفدت قواه وعجز عن إجابة لمسات مثيرة ، ناولته ابنته عقاقير مهيجة ادت آثارها العنيفة إلى اختلال قواه العقلية .

وإزاء تلك الظروف ، وضعت إدارة مصر بين يدى إبراهيم . وثقلت على إبراهيم حياة ابيه حتى لقد منع الموظفين ـ قبيل وفاته هو ـ من عيادة الشيخ البائس الذى هوى إلى درك الطفولة . ويقال ان « سليمان باشا » وبضعة آخرين كانوا من الجراة بحيث تخطوا تلك الأوامر .

وعاد عباس باشا ـ وكان قد اعتزل فى الحجاز ليتفادى محضر عمه الذى لم يكن يطيقه ـ عاد ليتسلم مقاليد الحكومة التى تركها إبراهيم .. غير انه لم يظهر نحو جده احتراما أكبر .

وهكذا يمكن أن يقال ان محمد على توفى مهجورا قد انصرف عنه اولاده . فقد كان سعيد باشا هو الوحيد الذى تبع نعشه . ودفن والى مصر بالمسجد الأنيق الذى بناه فى القلعة ، ومن هناك يبدو أنه يشرف على البلد الذى فتحه بعبقريته ! .

■ ■ ■

فلاح اسمر ، ارتدى جلبابه الوحيد ، ولف راسه فى عناية بملفعته ليبدو كاسيا وإن ظل حافى القدمين . إنه يتشبث بأخر ما بقى له من مظاهر الاحترام . ها هو ذا بين رجال الشرطة الفخورين بزيهم التركى القشيب ، وهم رجال شديدو البأس ، مفتولو العضلات والشوارب . طرحوه ارضا ، فنكسوا راسه ، وعروا ساقيه ورفعوهما ، واوثقوا قدميه كيلا تخطئهما ضربة واحدة من الضربات المائة التى مضى يتبادل توقيعها بالعصا شرطيان متخصصان فى هذا الفن من فنون التعذيب . لقد جردوه من ادميته .

وعبثا سجد امام رئيسهم يستعطفه شيخ البلد الجليل ذو اللحية البيضاء ، فقد استوى الرئيس مسترخيا على اريكته الوثيرة ، يستروح فى لذة انفاس النرجيلة ، وكانه لا يسمع توسلات الشيخ المتشفع ولا صرخات الفلاح المغلوب على امره .. وفيم التشفع ؟ ما اذنب الفلاح الكادح إلا فى عجزه عن دفع مزيد من الضرائب للباشا .

تلك هى الصورة الواقعية التى رسمها إدريس افندى ـ الفنان والمؤرخ ـ للاحتجاج على ظلم « محمد على » .

لقد عاش إدريس افندى بين الفلاحين ، وشاطرهم لذع سياط « المامور » ، والحبس فى سجن قذر خانق ، لانه عارض السلطة الغشوم . وابى الضيم ، واستبسل فى مصارعة رجال الباشا .

حكم قاسم باشا

(رسم ميشو عن بريس دافين)

إبراهيم باشا

صـــــورتـه

كل ما يبدو لك من خلقة إبراهيم باشا ينبيء عن رجل فظ سوقى . قامة قصيرة ، وبطنة ، وحركات مفاجئة ، ووجه انتشرت فيه نقط حمراء ونقره الجدرى ، وعينان رماديتان ترتفعان عند الزاوية الخارجية ، وثغر مبتسم دائما يضفى على وجهه الصغير مظهرا مرحا ـ هذه هى الملامح الرئيسية فى خلقته .

وكانت طبيعة إبراهيم محتدمة ثائرة ، ولكنك إذا اضحكته بشيء من التهريج رجع بسهولة عن حدة غضبه . وكان نزقا عنيدا ، حذرا ، يتوجس من كل شيء ، قاسيا ، مسرفا فى الانتقام . ولقد ابدى فى حرب المورة ايشع همجية ، متعقبا بوجه خاص النساء والاطفال ، زاعما انه يريد استئصال ذلك الجنس . ولن اتحدث عن جسارته ، فقد ضرب امثلة عديدة من الاستبسال .

وكان يحب الانتفاع فلا يدخر وسيلة لتكديس كل ما يطيب له . وبلغ من تكالبه على الكسب انه اثناء حياة والده كان يزاول التهريب ويسرب إلى القاهرة ، تمبك ، مزارعه التى كانت فى القبة . وكان يعرف دائما ان يجد التعلة لينكص عما وعد .

وكان يتكلم كثيرا كلاما ردىء العبارة خاليا من كل علم ، والويل لمن كان يجرؤ على ان ينقض ما يقول او ان يقدم بعض الاعتراض على مشروعاته . ولا يكاد إبراهيم يعرف القراءة والكتابة إلا فى مشقة ، ويضيف إلى هذه الذخيرة من الجهل غرورا وكبرياء لا تطاق . انه لا يعرف فضل المحسن ، وبالتالى لا يسعى إليه ، وهو اقل من ذلك سعيا إلى اثابته . وقد يصغى احيانا إلى راى اولئك الذين يحيطون به ، ولكن إسرافه فى الاعتداد بنفسه واملاقه من سداد الراى الذى يتيح للمرء ان يقارن ، ومن المعارف التى تتيح للمرء ان يناقش ، كل ذلك يدفعه إلى اتباع رايه دائما لانه يعتقد انه افضل الآراء ، وهو يقول : « انا إذ افعل كل شيء بنفسى يغمرنى المجد او اللوم دون سواى »

* * *

مذبحة المماليك الثانية

التجأ المماليك الذين فروا من مذبحة القلعة ـ حيث قتل ١٢٠٠ منهم ـ إلى النوبة ودنقلة . واضطروا مكروبين من ناحية بعقبات الطبيعة ، ومن ناحية اخرى بتعقب « إبراهيم بك » إياهم ـ وقد انهكهم قتال اقدموا عليه هنا وهناك دون ظفر ـ إلى ان يلتمسوا الماوى فى الجبال التى يقطنها العبابدة والبشارية . واجبرتهم هذه القبائل الهمجية على اداء ثمن باهظ عن تلك الضيافة العقيمة . وقد انفق البكوات لإمداد جنودهم بالقوت اللازم فى قلب تلك الصحراء جميع ما ملكت ايديهم . وعلى الرغم من التضحية بذخائرهم فقد هلكت جميع جيادهم من قلة الغذاء ، وهلك كثير من رجالهم نتيجة لشدة الحرمان .

فلما امل المماليك من راحة الحياة واصبحوا يعانون مالا يطاق من الضيق ، قبلوا ان يستمعوا لعروض الصلح التى ارسل إبراهيم الماكر مندوبيه يقترحونها عليهم وسط كربتهم . ولم يعدهم سلامة حياتهم فحسب بل وان يعيدهم إلى مثل المناصب التى فى مستوى رتبهم وان يرد لهم ممتلكاتهم ، وهذا كله على شرط ان يعترفوا بحكومة محمد على .

ولقد خلبت هذه الوعود نحو ٤٠٠ مملوك فانستهم الدرس القاسى الذى تلقوه منذ عام خلا ، وكان على راسهم بكوات مختلفون ، فقبلوا المقترحات . وفى نهاية مايو عام ١٨١٢ نزلوا من الجبال قوافل صغيرة واتجهوا نحو اسنا حيث كان مقر قيادة إبراهيم . فلما اجتمع المماليك ، ورأى ابن محمد على انه لا ينبغى انتظار قدوم آخرين تستدرجهم تلك الوعود المغرية ، اصدر امره بالإجهاز على اشتات هؤلاء الجند الذين كانوا ذوى صولة فيما مضى . وفى ليلة واحدة ذبحوا جميعا بلا رحمة . ولقى مائتا عبد اسود مصير سادتهم .

وانقذت وساطة طبيب إبراهيم الفرنسى مملوكين فرنسيين من طائفة هذه المذبحة الرهيبة . وثمة مملوك آخر لقيته فى اسنا يدين بنجاته إلى ما كان عليه من الصبا والجمال .

* * *

إبـراهـيم القـــائـد

لم يكن لإبرهيم شيء من ملكات القائد الصالح ، بل لم تكن له الثقافة العلمية اللازمة لقائد الجيش ، فلذلك كان ما كسبه من فوز راجعا إلى جبن اعدائه بصورة لا يمكن للمرء ان يتصورها اكثر منه إلى تدبيره ومهارته . وهو لا يصدر تعليمات واضحة محددة ، وإنما يتكلم كثيرا ، حتى يختلط الأمر على رجاله لكى يستطيع إذا فشلت المهمة ان يلقى وزر الخطا على اولئك الذين ـ حسب ما يرى ـ لم ينفذوا أوامره .

ويقود إبراهيم قواته العسكرية بالتملق والخرافات وإغرائها بالسلب والنهب ، ولا يعاقب ابدا على ما ترتكبه من فظائع كما انه لا يثيبها . ولا يشغله ابدا همّ المحافظة على سلامة جنوده والعناية بصحتهم ، فانه يهدمهم بالمشى المنهك ، وقلة الراحة التى يمنحها إياهم ، وقلة الغذاء والكساء .

هذا هو الرجل الذى اجترا قلم مرتزق (مسيو سكاكينى) على ان يكتب عنه : « ان إبراهيم روح الجيش . نظرته الواعية ورباطة جاشه من صفات قائد محنك . وولاؤه وتواضعه النبيل وانطلاقه وسط نار الوغى قد كسبت له قلوب رؤساء جنوده . لقد قدر لهذا الأمير ، الإدارى الصالح ومحب انوار الثقافة والمدنية ، المع مستقبل » . هكذا ـ على وجه التحديد ـ يكتبون التاريخ ! .

* * *

إبـراهـــيم العظـيم ؟ !

إنما يعرف الرجل باعماله . وارسم صورته واخلاقه ينبغى ذكر الوقائع فى المكان الأول لا التفلسف ولا الإشادة بالمناقب ولو كان فى ابلغ الأساليب . وها هى ذى بعض الوقائع التى تتحدث من تلقاء نفسها ولا تحتاج إلى تعليق .

اثناء جولة بدمياط ، شرف إبراهيم باشا بحضوره حفلة اقامها لتكريمه « سرور » القائم باعمال الانجليز . وبعد راحة القيلولة قدمت له صبية تتراوح سنها ما بين الثامنة والعاشرة سلة من الفواكه والأزهار . فاثنى إبراهيم للقنصل على جمال ابنته مشيرا إلى انها سرعان ما سوف تبلغ نضجها ، وسأله هل امها على قيد الحياة ، فلما اجيب بالإيجاب ، اضاف :

— ويحكم أيها النصارى لا تتزوجون إلا امراة واحدة ! انى اتمنى لك موت الام هذا الاسبوع لكى تحظى باخرى .

* * *

إبـراهـــيم البـطل ؟ !

اكتوبر ١٨٢٦ :

اثناء حملة شنها إبراهيم باشا على ضواحى « تريبوليزا » أسر الرجال فتى يونانيا فى كمين . فاحضروه إلى خيمة الباشا . وسأله إبراهيم عن اسم قائد فرقته . فاجاب الفتى انه جندى ولكنه لا يعرف شيئا مما يسأله عنه . والح الباشا فى سؤاله . وإزاء رفض الفتى هدده بالموت . فرد عليه :

— لو كان لى بذلك علم فلن اخون مصلحة وطنى . فاغتاظ إبراهيم من هذا الجواب النبيل . وتناول بندقية واحد من حراسه . وقتله .

ديسمبر ١٨٢٦ :

أقبل رجل يونانى إلى معسكر « مودون » للمفاوضة على تبادل بعض الاسرى . فرفض إبراهيم باشا عروضه ونهاه عن المجىء مرة اخرى . وبعد بضعة أيام . حضر نفس المفاوض إلى المعسكر لنفس الغرض . فامر الباشا ـ دون ان يحاول الإصغاء إليه ـ بالقبض عليه وإلقائه حيا فى تنور معمل للآجر .

* * *

إبـراهـــيم التـاجـر

لقد بلغ من جشعه انه كان يعمل دائما على تاخير دفع مرتبات جنوده واحتجاز شىء منها . وفى المورة لم يدخر وسيلة للاستيلاء على النقود . وهذه بعض الأمثلة التى تشهد بذلك :

كان « انتوناكى ميتاكسا » تاجرا يونانيا يبيع ويشترى لحساب إبراهيم باشا فى مودون . كان يبيع لافراد الجيش من اللوازم ما يحتاجون إليه ويقبض الثمن اوراقا مالية تخصم من مرتباتهم . ولما طال الضباط مدة طويلة دون قبض مرتباتهم . عمدوا ـ لكى يحصلوا على شىء من النقود ـ إلى أن يشتروا ملابس واسلحة من « ميتاكسا » باثمان غالية ثم يبيعونها

في السوق ليستمدوا بعض المال نقدا . فكان عملاء « ميتاكسا » يشترون نفس السلع بثمن بخس ويملأون بها مخازنه من جديد .

وكان إبراهيم باشا يبيع لجنوده احذية وملابس باغلى من ضعف ما كلفته من ثمن . وفي شهر سبتمبر عام ١٨٢٥ ارسل إليه في مودون مسيو « جيتانو مارى » على ظهر السفينة النوسكانية « ليسيوس » بقيادة القبطان « بوسنجوفيتش » شحنة من ٩ الاف زوج من النعال المصنوعة على الطريقة المجرية . وكان الزوج منها يكلف نحو ١٠ قروش . فجعل إبراهيم ثمنه للجند ريالين .

وكان يضارب في اسعار العملة ، ويضطر فرق الجيش على ان تقبلها بالسعر الذى يفرضه . وبهذه المضاربة ، كسب يوما في مودون نحو ٦٠٠,٠٠٠ قرش إذ استغل الأمر ورفع سعر الريال إلى ١٦ قرشا بينما لم يكن سعره يتجاوز ١٥ قرشا في مصر .

وكان هذا الإتجار الدنيء وكانت تلك الصفقات الملفقة سببا في ان ظلت فرق الجيش في المورة ترتدى الأسمال وتعاني البؤس .

* * *

رحلتـه إلـى فرنسـا

عندما قام إبراهيم باشا برحلته إلى فرنسا ، رويت عنه عبارة لو كانت قد صدرت عنه حقا لدلت على ذكاء فريحة لم اكن لاتوقعه منه . فعلى اثر زيارته لقصر « فرساى » وحدائقه ، قال انه لا يدهشه بعد ان راى ذلك الا يكون الفرنسيون اهل دين وتقوى ، فانهم يملكون جميع ما وعد به المتقون في الفردوس ، ديارا فخمة ، وجنات جميلة ، ونساء خالبات الحسن ، وانبذة لذيذة .

وقد تبدلت افكار إبراهيم باشا بصورة غريبة اثناء زيارته لأوربا . وحين عاد إلى مصر ، كان ينوى إدخال تحسينات عديدة حال موته دون تنفيذها .

كان يريد ان يجعل من ميدان الأزبكية حديقة عامة ، وامر بشراء الة بخارية لرى هذه الحديقة التي لم يمهله الزمن للشروع في غرسها .

* * *

وفـــاتـــه

ينسب « بونفور بك » وفاة إبراهيم إلى إهمال عارض لا إلى انحراف فيه . فذات يوم زار حصون الاسكندرية بصحبة « جاليس بك » وعاد إلى القصر فى قيظ الظهر ينضح عرقا ، وجلس امام نافذة فى مجرى الهواء يشرب الشامبانيا . فتكا ذلك ما كان قد اصابه من داء الرئة حين سافر إلى القسطنطينية ولم يكن قد برأ منه تمام البرء . وتفاقم الداء ثم اضطرته صدمة برد جديدة فى القاهرة إلى لزوم الفراش ، فرقد الرقدة التى لم ينهض بعدها . وقد توفى فى القاهرة فى ١٠ نوفمبر عام ١٨٤٨ (١٤ من ذى الحجة عام ١٢٦٤) وهو يتمتع بثناء اقاربه ، بين يدى وكيله مسيو « بونفور » ، دون ان يفكر فى الموت ، بل قائلا انه لابد ان يبيع قطنه بثمن مرتفع ! .

* * *

رثـــاء محمد على لإبراهيم

حين أنبىء محمد على بوفاة إبراهيم قال انه كان يعتقد دائما ان ابنه سوف يسبقه إلى القبر وان حفيده عباس سوف يخلفه على عرش مصر .

■ ■ ■

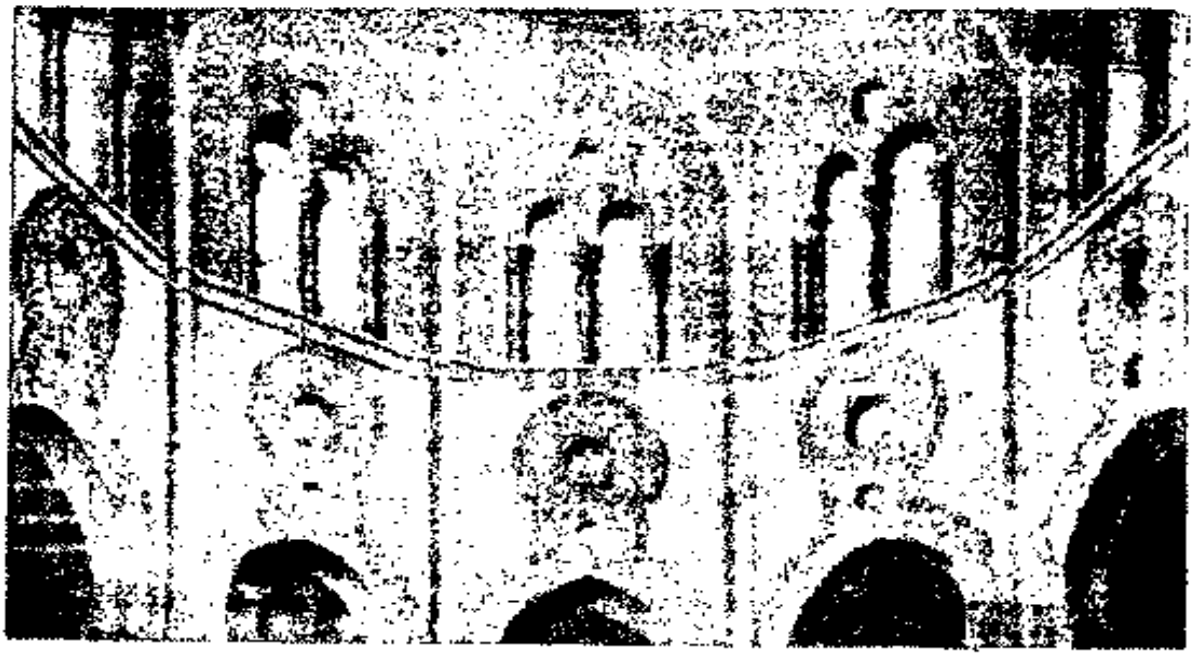

عبـــاس بـاشـا

نشأته :

ولد عباس باشا فى القاهرة عام ١٨١٣ . وكان الولد الوحيد لطوسون باشا الذى اختطفه موت مبكر من حنان أبيه محمد على . وكان الوالى الشيخ يؤثر عباس فى صباه بمحبة خاصة . فنشأ مدللا واهملت ثقافته بين يدى مربيه التركى وما احاطه من عبيد حريصين على إرضائه . وهكذا شب دون ان يلتفت إلى التجديدات التى ادخلها جده والتى كان يجد نحوها فى نفسه شعورا من الازدراء لازمه طيلة حياته .

ذات يوم بمناسبة عيد الأضحى . ذهب يقدم فروض التهنئة لجده ، فجلس على الديوان واضعا ساقا على ساق ، وهو وضع لم يكن احد يجرؤ على اتخاذه فى حضرة الباشا الشيخ . واستاء محمد على الا يراه يسعى إليه ليقبل يده فى احترام ثم ينتظر حتى يأذن له بالجلوس . فساله باى حق اباح لنفسه تلك الحرية فى الجلوس . فاجابه :

— بحق الرجل الذى يعرف شرف اجداده . الست باشا ابن باشا وحفيد باشا ، بينما انت لا اجداد لك من الأشراف ؟

فامره محمد على – وقد استاء لإجابته – ان يعود إلى جناحه ويلزمه إلى حين صدور أوامر اخرى . وفى اليوم التالى ارسله إلى معسكر « جهاد اباد » قرب الخانكة ليتلقى تربية وتعليما يناسبان آراء الوالى المجدد . والحق بمدرسى اللغة التركية والفارسية والرياضة كولونيل فرنسى لتدريس العلوم العسكرية ومدرس للطبوغرافية الحربية ومدرس للتاريخ .

ولقطع الصلة بحياته الماضية ، ابعدت عنه حاشيته ، وعين مماليكه بالمدرسة الحربية ، والغى فريق الصيد الذى كان يخرج فيه . وترك له حصانان ، ولكن بدل ان يسرجا على الطريقة الشرقية كالكرسى الوثير ، اجبر على ان يمتطيهما فوق سرج الخيالة . وذات يوم ، امتطى حصانه

الذى لم يكن قد اعتاد ذلك السرج ، فجمح الحصان والقاه ارضا ، امام كتيبة كانت تدق طبولها إيذانا بان تؤدى له التحية العسكرية . فامر ـ وقد اثارت غضبه تلك الحادثة ـ ان يوثق الحصان وأن يضرب بالعصا .

وبعد عشرة اشهر من الجهود غير المجدية ، إذ رأى الباشا الشيخ نفور حفيده من الفن العسكرى ، اعاده إلى القاهرة لكى يدرس الإدارة .

وظهر نفوره من نظم الفرنجة ومن زيهم فى كل مناسبة . وعندما امر السلطان ان يرتدى جميع كبار موظفى الدولة الطربوش بلا عمامة « والفراك » « والبنطلون » والاحذية ، لم يرد قط ان يلبسها . وإزاء هذا الازورار داعبه الدكتور كلوت بك قائلا له انه لابد أن يتخذ ذلك الزى ، فشكاه إلى جده الذى امر فى الحال بان يقف الطبيب اياما ثمانية . وهو لم يلبس ذلك الزى إلا بعد ذلك بسنوات ، ولمجرد الرحلة إلى القسطنطينية لتسلم مقاليد الولاية .

وسرعان ما عين محمد على عباس على راس الإدارة الداخلية ، حيث يصعب تصريف الأمور ، وحيث ابدى فهما نادرا لحاجات البلاد ومصالحها الحقيقية .

كان يضيف إلى شدة عزمه قسطا كبيرا من التلطف والولاء وكرم السليقة ، وجودا اصيلا ورثه عن ابيه . وكان بسيط العوائد حفيا يعرف كيف يؤلف بين اهل البلاد على اختلافهم . لقد عمدت بعض الصحف ، وقد ضللها اشخاص سيئو النية من الاوربيين الذين خابت امالهم الطامعة ، إلى إذاعة ان حكمه كان يعوزه الذكاء والنظام . ولكن هذه الوقائع تكذب ما رموه به :

فمنذ شبابه تدرب على الشئون الإدارية والحربية وحكم مصر بوصفه وكيلا لمحمد على . وفى عامى ١٨٣٨ و ١٨٣٩ ، حين اوشك وقوع الحرب بين الباب العالى ومصر ، وكان إذ ذاك محمد على فى « فايزوغلو » قرب خط الاستواء وإبراهيم باشا فى تخوم الممتلكات السورية ، عين محمد على ، لإعداد معدات الحرب حفيده حاكما عاما على مصر وحاكما لشئون سوريا المدنية .

وفى تلك الفترة التاريخية العصيبة ابدى فى الحكم من النضج وفهم الأمور ما استحق به إمارات الثناء من جده . ولكن طلب لأعدائه ـ ليثيروا ضدد الراى العام ـ ان ينشروا عن كرهه للنظم الأوربية اقاصيص كاذبة

سياسته

عندما تولى عمه إبراهيم باشا الحكم ، اعتزل عباس الحياة العامة وانتهز الفرصة لاداء فريضة الحج . وحين توفى إبراهيم ، كان عباس الذى آلت إليه الولاية ـ حسب رسم الوراثة العثمانى ـ ما يزال فى الحجاز ، فتألف فى اليوم نفسه مجلس من اصحاب المناصب الكبرى فى الدولة لتصريف الامور إلى أن يصل عباس . ولقد ابلغوه نبأ توليته عن طريق القنصل الانجليزى الذى ارسل سفينة تجارية من السويس عاد على ظهرها الوالى الجديد إلى مصر بعد انقضاء بضعة ايام على وفاة إبراهيم . وكان فى استقباله عمه سعيد باشا الذى كان إذ ذاك فى القاهرة ، يصحبه جميع اصحاب المناصب الكبرى . وتمت مراسم المناداة بعباس باشا واليا على مصر فى قلعة صلاح الدين بحضور اهم اعضاء الاسرة وكبار الموظفين العسكريين وقناصل الدول .

وقوبلت توليته بابتهاج من جميع الشعب . ولقد بادر فبدأ حكمه باتخاذ بعض الإجراءات التى حققت جزئيا بعض ما كان الشعب قد رجا من أمل . رفع بعض المظالم الصارخة ، وكافأ عن بعض الخدمات ، واحكم بعض ما كان قد اختل من النظام . وفى ذلك ما يبرر الثقة العامة التى حازها فى اول ايامه . ومن بين تلك الاعمال يذكرون انه اعاد جماعة من الموظفين المفصولين من إدارات مختلفة دون معاش إلى وظائفهم .

بلغ عباس باشا السلطة فى اوائل عام ١٨٤٩ ، حين لم تكن لفرنسا اى سيادة فى الشرق ، وكانت قد سقطت مكانتها فى مصر . وكان يدير فى نفسه افكار جده فى الاستقلال ، ولكن من ناحية إنشاء امبراطورية عربية وقد فاتح فى ذلك قنصل فرنسا العام مسيو « لموان » ، وساله ما إذا كانت الحكومة الفرنسية تؤيده ان هو حاول التخلص من التبعية للسلطان وأراد مسيو « لموان » ، قبل ان يرتبط بجواب ، ان يستطلع رأى الوزير الذى اجاب بالإيجاب . ولكن بعد فوات الأوان . فقد ضاق عباس بذلك التانى ، فافضى بنفس المشروع إلى قنصل انجلترا العام مستر « موراى » الذى وعده فى الحال بالمعونة والحماية ، واصبح عباس صديقا للانجليز ، راجيا ان يتخلص فيما بعد من نفوذهم وذلك بإثارة العصبية العربية . وربما يُرد على سعى انجلترا ووعودها ، وجه نشاطا كبيرا واهتماما خاصا إلى إدخال جميع التحسينات الممكنة على

المواصلات والنقل بين القاهرة والسويس . وفي الوقت نفسه التمس التيقن من تاييد النمسا بان ارسل إلى فينا طبيبهُ الدكتور « بروتر بك » الذى كان خليقا بان يعقد له أواصر علاقة متينة .

لم يكن مطمعه الأوحد هو ضمان استقلاله وضمان عرش مصر لأولاده من دون امراء اسرته الآخرين ، وإنما كان يداعب في الخفاء امالا اعرض ويحلم بتكوين امبراطورية عربية .

وقد تحدثوا عن غرامه بإحدى البدويات دون ان يقدروا سبب هذا الزواج الغريب . وفي الواقع انه اقترن بابنة واحد من اقوى رؤساء قبائل بلاد العرب فربط بقضيته جميع عرب الحجاز الفخورين بهذه المصاهرة . ولكي يحسن إخفاء علاقاته ، امر ببناء قصر له في صحراء السويس و اخر في العقبة حيث كان يستطيع استقبال الرؤساء العرب بعيدا عن اعين الرقباء ، وان ينضج مشروعاته ويعد العدة لتنفيذها . وبعون قبائل شبه الجزيرة ، كان يمكنه ان يملى احكامه لا على مصر فحسب بل على بلاد العرب ، وان يقطع فوق ذلك على جيوش السلطان البرية طريق سوريا ، بينما كانت تحصينات الاسكندرية تحميه من أى محاولة لهجوم بحرى يشنه عليها الباب العالي . وبعد هذا كله ، كان يقدر انه في حالة إخفاق مشروعه واجِّد ملجا امينا في قبيلة زوجته الجديدة .

ولم يعرف الناس في اوربا شيئا عن هذا المشروع العريض ، ولم يعرفوا قط امر علاقات الباشا بمسلمى الهند الذين كان في استطاعتهم إثارتهم ضد الانجليز كما حدث ذلك فيما بعد بوقت قصير ، ولم يروا في هذا الاعتزال بالصحراء إلا بعض اهواء الوالى . ولما كان قد اغضب كثيرين من الاوربيين بإصلاحاته ، لم يفتهم ان ينالوا منه في الصحف . ومن الحق ان اخلاقه ـ كاخلاق جميع الباشوات ـ مادة طيبة لنقد الناقدين . ولكن مهما يكن من امر ما يقال فيه ، فلقد كانت إدارته من اخصب الإدارات .

* * *

بغضـــه للأوروبيين

تشهد إصلاحات عباس باشا واقواله شهادة علنية باحتقاره للفرنجة . وان جميع ما رآه منذ طفولته ليبرر مسلكه . لقد كان يريد أن يعود إلى التقاليد والاخلاق القديمة دون ان يهمل شيئا في سبيل ذلك . ولما اثار غضبه ما كان يرى كل يوم من تغلغل العوائد الأوربية ، نهى مماليكه وجنوده عن تدخين السيجار والسجائر ، وإذ ضبط بعضهم متلبسين بما نهى عنه امر بان تخاط افواههم ، ثم امر بعد اربع وعشرين ساعة ـ حين رأى ان في ذلك عقابا كافيا ـ ان تقطع الخيوط التى حيكت بها شفاههم . وقد روى لي هذه الواقعة الفظة طبيبه مسيو « ليو » ، ونشر النبا على ما اظن ، في جريدة « التيمس » .

ولقد دفعته روح الاستقلال عن الباب العالى بقدر ما دفعه كرهه لزى الفرنجة إلى استعادة الزى العربى ولكن في جميع بهائه وبساطته الطريفة . واقتدى به المماليك فارتدوا جلاليب حريرية مطرزة و « كوفيات » موشاة بالذهب كان يرتفع ثمن عقالها إلى ٦٠٠ قرش . وعاد الترف الشرقى إلى الظهور ، إذا لم يكن في روعة ابهته ففي اناقته النبيلة الجميلة .

ولم يكن يحب استقبال القناصل ، فإذا اضطرته المناسبات الكبرى إلى ان يتجشم عناء زيارتهم ، دعاهم إلى مادب عشاء طيبة على الطريقة الأوربية لم يكن يظهر فيها . فقد كان يتعشى بمفرده دائما . كان يتوارى ليتناول وجباته ويأكل على هواه ، اى كما يأكل الشره إلى حد ما .

* * *

عباس باشا والحيوانات

وتحدثوا كثيرا عن حبه للحيوانات . ولقد كان يقتنى بالفعل احسن الجياد واحسن الجمال في مصر والحجاز . وبلغ من حرصه عليها انه لم يكن ياذن لاحد بزيارة حظائره . لم يكن عباس يمنع دخول داره بالعباسية ، كما يزعم « شارل ديديه » ، ولكنه كان من هواة الجياد فكان يخشى عليها شر العين الحسود ، شانه في ذلك شان جميع الاتراك ، ولذا اصدر اوامره لحرسه بالقبض على كل من يقترب من الحظائر .

وكان لعباس برج حمام تعمره اجمل واندر الحمائم التى كان يستجلبها

من جميع البلاد . وكانت لديه ايضا عدة اجناس من الكلاب ، وعدة انواع من الخراف والكباش ، وكان يحيط تلك الحظائر التى يعيش فى وسطها بعناية مترفة نزقة هى بعض صفات الأمراء الشرقيين ، فكانت حمائمه تحمل جلاجل من فضة ، وكانت كلابه تحمل اطواقا باذخة ، وكانت كباشه مصبوغة بالحناء مذهبة القرون . بيد انه لا ينبغى ان تصدق ما يزعمه بهذا الصدد « ماكسيم دوكان » الذى يسيطر عليه خياله الخصب، ولا يعرف من مصر إلا مظهر الاحجار التى صورها بالته .

* * *

اخـــــــلاقـه

اما اخلاق عباس ، فكانت كاخلاق جميع سلاطين الشرق ، حيث يدلل الغلمان اكثر مما تدلل الجوارى . لقد كان عباس يستسلم لمجونه فى الخفاء ، مع مماليكه الذين كان يجعلهم يؤلفون حلقة لإمتاعه ، ولكن كرامته كانت تابى عليه أن يكون الأداة السلبية للذة عبد او فلاح .

وكان قاسيا محبا للانتقام . رفض يوما طبيبه الدكتور « جاندى » ان يعطيه كمية من السم فكسر الخزانة واستولى على القارورة ، وسمم بها احد مماليكه . ورفع الطبيب استقالته إلى الباشا الكبير ، وقبض مؤخر مرتبه . ولكى ينمى المبلغ الصغير الذى ادخره قام برحلة إلى سنار . وعندما علم عباس بسفره دبر اغتياله عند اول بئر فى صحراء البايوضة .

وكتب بعضهم ان عباس باشا قد تزوج راقصة شهيرة من راقصات القاهرة تدعى « صفية » وهذا خطا فى ذكر الواقعة . لم يفعل عباس ، وقد خلبه جمالها ، إلا ان اتخذها خليلة له بعض الوقت ، ثم سرعان ما نسيها .. إلى ان عاد فتذكرها حين علم من قبيل المصادفة ان احد الضباط فى حيازته « نرجيلة » فاخرة كان الوالى قد اهداها إلى عشيقته إذ ذاك ، فإذا به دون ان يتحرى كيف انتقل هذا الغليون إلى ايد اخرى ، يامر بالقبض على المراة التعسة وإلقائها فى النيل . ولم تنج « صفية » من الموت إلا حين باحت بفقرها الذى اضطرها إلى بيع جزء من متاعها . على ان ذلك لم يمنع من ضربها بالعصا وإعادتها إلى اسنا بين البغايا اللواتى عرفهم كثير من الاوربيين .

ولم يكن عباس باشا يجد راحته فى جو المدن . كان يتطلب هواء

الصحراء الطلق النقى ، وتشهد بذلك قصوره فى بنها والعباسية والدار البيضاء .

وكان القصر الذى ابتناه فى وسط السهل المجدب ، الذى يبدأ عند آخر مقابر السلاطين المماليك ويمتد بين الأراضى المزروعة وسلسلة المقطم قصراً اشد عزلة وكآبة من مخيم للبدو . فهكذا كان يعسكر مع موظفيه فى قصر بائس ، تحميه بعض قطع المدافع وفرق الجيش المرابطة بجواره ، بعيداً عن مطالب القناصل ، بعيداً عن توسلات الأوربيين ودسائسهم ، وعلى استعداد للنزوح فى أدنى لحظات السامة .

وكان عباس منخفض الجبهة ، عريض الفكين ، له ذوق الأطفال ونزق المجنون ، وكان ورعاً ، متطيراً ، تكسوه التمائم والتعاويذ من كل نوع .. ولكنها لم تستطع أن تحميه من ميتة فاجعة .

* * *

نهـــــايـة عبـــاس

وحانت نهاية عباس عندما اكتشفت الخطة التى كان يبيتها للتخلص من سلالة محمد على لكى يضمن وراثة عرش مصر لابنه من بعده . كان الأمر امر انقلاب يودى بحياة خمسين من كبار ذوى النفوذ يوم سفر المحمل ، وهو احتفال عظيم يجتذب جمهوراً غفيراً . واعطيت قائمة باسماء الضحايا لخورشيد باشا . وفى ذلك اليوم ، على اثر تسليم مقود المحمل لامير الحج ، كان مقدراً أن يتشاجر اثنان من رؤساء « الباشيبوزوك » ، وان ينتضيا سيفيهما ، وان يشترك فى الشجار رجالهما الموزعون بمهارة . وفى هذه الملحمة كان مقدراً ان يقتل عدة باشوات وبكوات وحاشيتهم . وكان مقدراً فى الوقت نفسه ان يتصنع بعدد من الفرسان تعقب القتلة فيدخلوا فى وقت واحد دار حليم باشا ، عم الوالى ، وقصر مصطفى أحمد باشا وإسماعيل باشا ، ابنى عمومته ، كانهم لاجئون يلتمسون المأوى ويقتلون جميع من هناك . هكذا فيما يقال ، كان عباس يريد ان يتخلص من مزاحميه ويمهد طريق العرش لابنه « الهامى » .

على ان القول بذلك ينبغى ان يؤيده الزمن اولا وان يؤمن عليه قوم نزيهون قبل ان يسجل فى التاريخ . لاننا إذا صدقنا كل ما اشيع فى القاهرة ، رأينا ان الجميع كانوا يحيكون الدسائس إذ ذاك . فقد كان سعيد

باشا على الرغم من همود عزيمته يدرب على حمل السلاح بعض الجنود والبحارة . ولم تثر هذه الاستعدادات الحربية قلق عباس ولكنها اثارت حفيظته ، ولم يكن بد لسعيد من الالتجاء إلى السم وقاية لحياته وضمانا للعرش . وهذه الرواية اشد شبها بالحقيقة .

وكان عباس ذا بنية ضعيفة القلب ، ولكن وفاته لم تكن نتيجة سكتة قلبية كما قيل . فقد وجدت علامات سوداء حول عنقه ، على حد قول الرجل الذى كلف بغسل جثته قبيل دفنه . وكان قد دخن فى الليلة البارحة « جوزة » محشوة بالشيرا (وهى مستحضر من الحشيش) ثم نام نوما عميقا . فانتهز القتلة تلك الفرصة . وعلى الرغم من ارتكاب القتل فى قصر بنها الذى كانت تحرسه قوة كبيرة من الحرس ، لم يعترض احد سبيل القتلة فى فرارهم .

لقد اسرجوا جيادا وهربوا عابرين ثلاثة مراكز من الحرس يلتمسون ماوى لهم ، من حيث انطلقوا بعد ذلك دون ان يفكر احد فى اعتقالهم .

ويقول اكثر الآراء انتشارا ان ميتة عباس كانت بايدى مملوكين اكتراهما سعيد باشا ، على حين يزعم آخرون ان مصرعه كان بايدى أخوين اراد هذا المستبد الفاجر ان يجبرهما على ارتكاب الفعل الداعر الذى تروى الاساطير ان « المشترى » صنعه « بجانوميد » ، فرفضا ، فهددهما بشر العقاب لما يبديان من عصيان ، فخشيا ان يحيق بهما مصير عبد كان قد خصى فى الليلة السابقة ، وانتهزا فى نفس الليلة فرصة سكر الباشا وخنقاه .

ولكن وقائع كثيرة تشهد ضد خليفته . فقد منع سعيد باشا القيام بتشريح الجثة ، ودفع الطبيبين « ديامنتى » و « مارتينى » إلى توقيع شهادة بان عباس قد مات بالسكتة القلبية . ولم يسع إلى تعقب القتلة . واقبلت ام عباس باشا على سعيد باشا باكية تسأله ان يثار لولدها ولكنها لم تستطع ان تنال شيئا . والقى القبض على رجل برىء لمجرد الشكليات .

وقد اراد إلهامى باشا ، ابن عباس ، ان يستجوب المماليك ، فلم يؤذن له . وبعد ذلك لم يتحدث احد عن القتلة الذين لجأوا ـ فيما يقال ـ إلى القسطنطينية ، حيث دبر ابن عباس ، الذى يقيم اليوم هناك وقد تزوج إحدى بنات السلطان ـ امر بقتلهم فى احد المواخير

ان كل ما اشيع عن موت عباس غير صحيح ـ قال لي ذلك طبيبه الدكتور « دياماتي » ـ فقد كان ذا بنية ضعيفة القلب ومات فجاة نتيجة لازمة دموية . وقد سمع مملوكاه النائمان كالعادة بجوار بابه بعض اقوال مختلطة لم يفهماها قط ، وعندما رايا سيدهما قد فارق الحياة هربا في الحال إلى القاهرة خشية ان يتهما بقتله . وفي الصباح ، إذ لم يخرج احد من تلك الغرفة ، تقدم بعض رجال القصر فوجدوا عباس متصلب الجسد مثلوجا . فاستدعوا طبيبه الذى اكد انه مات بالسكتة القلبية منذ ست او سبع ساعات . ولما كانوا يظنون انه مات مسموما ، ولم يستطع الطبيب ارتجالا ان يجيب بالنفي فقد اذنوا له بفحص الجثة ، ولم يكن عليها اى اثر للعنف كما لم يكن على الفراش او في المكان المحيط به ما يدل على ذلك .

وكان هذا الموت في بنها يوم ١٤ يولية عام ١٨٥٤ (٩ من شوال عام ١٢٧٠) واراد احفياء الباشا ـ وعلى راسهم سكرتيره وخازنداره ـ ان يكتموا امر موته ، فوضعوا الجثة في عربة لنقلها إلى العباسية ، واتخذوا جميع الإجراءات اللازمة لحفظ النظام باسمه ، ثم احتبسوا انفسهم في القلعة اياما ثلاثة قبل ان يصرحوا بفتح الابواب .

* * *

عهد عبـــاس

ودخل سعيد باشا القاهرة في ١٧ يولية . وكانت قد اضيئت الانوار في قصر شبرا حيث اجتمع الكبراء لاستقبال سموه . وكانت البهجة عامة : فالعبيد يأملون دائما آمالا كبارا من تغير السادة . وكان الشيء الوحيد الذى يشفع لسعيد باشا هو حبه رفقة الاوربيين وانه تربى تربيتهم .

وبعد ان انقضى شهران على تولى سعيد ، اسف الكبار والصغار على موت سلفه . ذلك ان عباس كان إداريا صالحا ، جرى على يديه المال وجرت الحياة في مصر من اقصاها إلى اقصاها . ولم يمدحه الاوربيون لانه لم يغدق عليهم اسباب الغنى ، ولكنه بوجه عام دفع اجر من ادى له بعض الخدمات .

فلقد وجد ـ وكان في ذلك على حق ـ ان الفرنجة قد خدعوا جده في اكثر الاحيان فكان عليه ان يحذرهم . ولم يكن يمنح ثقته باستخفاف ، بل طرد

من الخدمة عدة اوربيين أرادوا ـ وقد ازدهتهم معارفهم ـ التدخل فى شئون الحكومة أو ازجاء النصح له دون ان يسالهم نصحا .

وقد فاجاه الموت وهو يفكر في مشروعات كبيرة : هب انه لم يكن يتامر للقضاء على جميع أعضاء أسرته الخليقين بان يطالبوا بالولاية على مصر ، فقد كان يفكر فى أن يضمن العرش لولده ، الذى كان قد أرسله منذ وقت قصير إلى أوربا لكى يعقد فيها أواصر علاقات دولية بقدر ما يتثقف فى شئون الحكم .

■ ■ ■

لقد تعلق الخديو اسماعيل بالحياة في القصر تعلقا واقعيا

سعيد باشا

الابتهاج بتوليته

قال احد المصريين سنة ١٨٥٨ عن الانوار التى اوقدت بمناسبة توليته : « ان الزيت الذى اوقدناه احتفالا بجلوسه ندفع ثمنه دموعا منذ اربع سنوات » .

وفى الواقع ما خيب عهد آمالا انعقدت عليه خيبة أَمَرَّ من مُلْكِ سعيد ، وما كانت مصر اسوا حكما ولا اباس حالا منها فى ايام هذا الامير الذى رباه اوربيون لم يحسنوا إلا تملق نزواته ، والاغضاء عن رذائله بل تشجيعها .

* * *

تربيته وصفاته

فيما عدا اللغة الفرنسية التى يتكلمها بطلاقة ، لم ياخذ سعيد شيئا عن الاستاذين « كونيج » و « هوزار » . ولكن الاستاذ « كونيج » عرف كيف يغتنى ، اما الاستاذ « هوزار » فقد مات قبل تولى سعيد ، ووعد سعيد ارملته بمعاش تتقاضاه مدى حياتها غير انه لم يصرف لها ابدا . ولما حضر ابن الاستاذ « هوزار » إلى مصر عام ١٨٥٨ ، اكتفى صاحب السمو بإهدائه سيفا بوساطة مسيو « سابانييه » .

ولم ياخذ سعيد ايضا من عشرته للاوربيين دروسا فى سلامة الذوق . فان القصر الذى ابتناه فى « المكس » وكلف بتشييده مهندسه مسيو « مونتو » قصر من طراز « الروكوكو » قد انتشرت فى عمارته كالشوك نحوت منقولة طبق الاصل عن « الانفاليد » مذهبة شديدة السرف فى الطلاء بالذهب .

ولم يتعلم منهم سعيد باشا اللباقة والادب . فانه غليظ اللغة والعادات لا يرعى حدا ولا اعتبارا . وكثيرا ما يلقى عبارات قذرة فى حديثه . ذات يوم كان جوابه لكلوت بك الذى اقبل يحمل إليه تحيات من طرف الاميرة ماتيلد :

— وماذا تحمل هذه البغى ؟ (باللغة الفرنسية) .

ورغم انه وقع مع الجميع ، فانه لا يبيح لاحد ان يخاطبه بنفس اللهجة .

وانك لتتقدم حين تحصل على الاذن بالدخول إلى سموه ، وتنتظر ان يتفضل السيد بالالتفات إليك او ان يومىء لك بالتحية ، ولكنه إذا كان لا يريد ان يفطن إلى وجودك ، ادار لك الجميع ظهورهم وانصرفوا عنك : فانت إذن من المغضوب عليهم .

وليس لسعيد باشا من اللياقة وحسن التصرف ما يلزم لمن يكون في مركزه ، فكثيرا ما يسيء استقبال شخصيات كان ينبغي ان يظهر نحوها قدرا من الاعتبار او ان يتكلم عنها في تحفظ .

وسعيد خفيف العقل قليل التبصر ، يتحدث عن شئونه امام الاجنبي كانه يتحدث إلى امين سره . وهو فوق ذلك شديد الذرق ، ومن كان حظيا لديه يوما لا يظل في حظوته تلك امدا طويلا .

وعلى الرغم من تثقفه بالعلوم والفنون الاوربية ، وهو امتياز لم يتيسر لأحد من اسلافه ، فقد اهمل جميع المؤسسات التي انشاها محمد علي وإبراهيم باشا ، وتركها تختنق . لقد نقلت اخيرا جميع ادوات المرصد إلى احد مخازن الذخيرة ببولاق ، واحيل الفلكي العربي إلى هيئة المهندسين . واصبحت ورشة تصليح ادوات علوم الرياضة ورشة لصنع القذائف الفارغة . وكل شيء في سبيله إلى التلاشي جزءا بعد جزء .

* * *

وظيفة جديدة للجيش ؟

وحل محل الجيش الباسل الذي ارغم السلطان على التسليم جيش من الماجنين يتعذر ان يسود فيه النظام إذ تسود فيه الحظوة اولا . وإلى جانب جنود يلبسون الاسمال ، يرى المرء كتيبة فاخرة من الغلمان تمثل دور الجندي اثناء النهار ، وتؤدي ادنى ادوار الفجور اثناء الليل .

ويزعم متملقون انه احل التجنيد النظامي محل الضغط ، غير ان جيشه منتخب قبل كل شيء لغرض إرضاء شهواته الدنيئة . ولم يشنق من شنق من شيوخ القرى نتيجة لرفضهم تسليم ابنائهم للجندية ، بل لانهم ارادوا إنقاذ ابنائهم من مجون الوالي الذي يجند الجنود ليملأ بالغلمان حريمه له .

* * *

الضبط والربط

وفى الأيام الاولى من شهر ديسمبر عام ١٨٥٨ عندما كان سعيد باشا فى منفلوط ، وجد اثنان من الجنود انهما بجوار قريتهما فذهبا إليها لرؤية أهلهما وانفقا الليلة معهم . فلما عادا فى الصباح القى القبض عليهما . وامر سعيد باشا ، دون ان يحيلهما إلى مجلس عسكرى ، بان يرميا بالرصاص . فصوب الجنود الذين كلفوا بتنفيذ هذا الحكم المستهتر بندقياتهم بحيث يتفادون قتل زميليهم . واحتد غضب الباشا فامر بربط كل منهما إلى فوهة مدفع وإطلاقه ، وحكم على الجنود المتسامحين بالاشغال الشاقة

* * *

الشـــره

وسعيد باشا يحب الفواكه ويكلف بها ، ويرد إليه الكثير منها على كل باخرة قادمة من اوربا . ويقولون انه ينفق ما ينيف على ١٢ الف فرنك لإرضاء نهمه . وعند فتح صندوق من صناديق الفاكهة ، تراه أحيانا ينقض على الثمار فى شره المنهوم يلتهم واحدة بيمناه ويمسك اخرى قد انتقاها بيساره ويشتهى الباقى بعينيه .

وهناك واقعة تشهد أكثر من سواها بسفاهة الباشا ، وهى الأمر الذى اصدره إلى مدير مستشفى قصر العينى بعدم فرض طعام المرضى القليل على أى جندى . فالجنود أحرار فى تناول جميع ما يريدون وبالقدر الذى يريدون . وممنوع على الأطباء أن يصفوا لهم ضمن علاجهم الحمية من الطعام وتناول نصف وجبة او ثلاثة ارباع وجبة . وبلغ من شدة عطف سموه على جنوده الذين يشاطرونه لذاته واعماله ويدفعون عنه ما يحدق به من خطر أن عين لهم طاهيا خاصا ومائدة خاصة فى المستشفى .

اهتمامه بمصالح مصـر !

واهتمامه بمصالح التجارة اكذوبة من اكاذيب « دى ليسبس » وشركاه . ذات يوم شكا بعضهم إلى سعيد باشا من قلة انتظام السكة الحديدية التى لم تعد تسير قطرها إلا لحاجات سموه الخاصة ، فاجابهم :

— اننى شديد الاهتمام بمواصلاتكم التجارية . ولكن هذه السكة الحديدية ملكى ، ولى ان افعل بها ما اشاء .

ولا يشغل بال سعيد ان يخلف وراءه اسما شريفا وسعادة للشعب الذى عهدت به الأيام إليه . وإنما التكديس والاستمتاع هما شغله الشاغل .

قال لسليمان باشا :

إن نصائحك طيبة جدا ، ولكنى قبل كل شيء أريد ان الهو ولا يعنينى ما بقى بعد ذلك ، وليكن من بعدى الطوفان .

وقد حرم جمهورا من المستخدمين الشيوخ معاشهم ، منكرا ما أدوا من خدمات .

مصـرع أحمـد باشـا :
حادثـة كوبرى كفر الزيـات

أن موت أحمد باشا ابن ابراهيم ـ ولى العهد ـ يثير شبهات كثيرة حول سعيد . كان أحمد يفعل خيرا جما . كان جوادا يهب هبات عريضة وهو يدير املاكه فى اقتصاد . ومات ماسوفا عليه لان ملكه كان يعد مصر بمصير أسعد مما استطاع أسلافه أن يؤدوا لها . فليس من بين سلالة محمد على أو إبراهيم من يعد مصر بحكومة أبوية صادقة الحدب .

ولم يبد سعيد باشا اسفا على موت أحمد باشا ، بل كان مما قال : « ان اليتامى الذين كان يعولهم سوف يبكونه » . وغضب على ادهم باشا الذى تحسر لفقد أحمد .

وتحوى إحدى الصحف الصادرة فى مالطة فى ١٨ يونية ـ على ما اذكر ـ مقالا اثبتت فيه ان موت أحمد باشا كان قد أمر به سعيد .

واقر لى مهندس انجليزى انه قبل وقوع الحادثة ببضعة أيام ، صدر الأمر بالحفر حفرا عميقا عند أسفل أعمدة القنطرة دون ان تستدعى ذلك حاجة ظاهرة ، فقد كان هناك من الماء ما يحمل أشد السفن . ولولا العمل الذى حفر هوة ابتلعت عربات القطار ، لجاوزت العربة الثالثة ـ التى كانت تقل أحمد باشا ـ مستوى الماء ولنجا وارث العرش .

وقبل وقوع الحادث ببضعة اشهر ـ ومن المحتمل ان يكون ذلك فى الوقت الذى اختمرت فيه فكرة هذه المؤامرة الرائعة ـ سرح سعيد باشا « جريم بك » مدير السكة الحديدية الانجليزى ، واحل محله « نوبار بك » وهو فتى ارمنى ، وقدم له الهدايا قبل وقوع الحادث وبعده .

* * *

شقـــاء مصـــر

ان شقاء مصر الاكبر مصدره نظام وراثة عرشها الذى وضعه السلطان . فإن ولاة مصر الذين خلفوا محمد على كانوا يعلمون ان ابناءهم لن يرثوا الحكم ، فاهتموا بثرائهم اكثر مما اهتموا برفاهية مصر . انهم يفكرون فى ملء خزائن اولادهم ، او فى ان يضمنوا لهم العرش ، ولا يفكرون قط فى إسعاد المصريين .

وإدارة سعيد باشا اسوأ من إدارة عباس . تبلغ ديون الوالى الحالى اكثر من ٦٠ مليون ريال (٣٠ مليونا من الفرنكات) . وهو مدين بمثل هذا المبلغ للجيش الذى لم تدفع له مرتبات منذ وقت طويل ، وبمثله ايضا لتجار مختلفين . وبلغت شركة الملاحة للبحر الأحمر عاجزة عن القيام بعمل اى شىء لان الوالى لا يمدها بالمال اللازم . لقد انفق اثناء السنوات الاربع التى قضاها على العرش اكثر من ٤٠٠ مليون ، ويدين بحوالى ٨٠ مليونا . ولم تدفع للموظفين مرتباتهم منذ عشرة اشهر . وهناك تفكير فى أن يخصم منهم مرتب ثلاثة اشهر كما حاق بهم من قبل .

* * *

١٥ يولية ١٨٥٨

مر سعيد باشا امس فى « السكة الحديدية » دون ان يلتفت إليه اى عربى أدنى إلتفات ، فإلى ذلك الحد اصبح هذا الرجل محتقرا . ولم يحيه إلا بعض الاوربيين . وعندما وصل إلى القلعة ، قذف جمهور من العرب عرائض فى عربته ، فالقاها خارج العربة قائلا لهم انه لن يصرف لهم مرتبات قبل شهر « توت » .

واباح اخيرا احد القناصل لنفسه ان يبدى بعض الملاحظات للباشا بشأن مرتبات الموظفين المتأخرة ، فاجابه :

— انك تدهشنى . لقد دان أبى بمرتبات اربعين شهرا للمستخدمين دون أن يجرؤ احد على أن يبدى له ملاحظة . وانا ايضا ارى ان احكم كما يطيب لى .

■ ■ ■

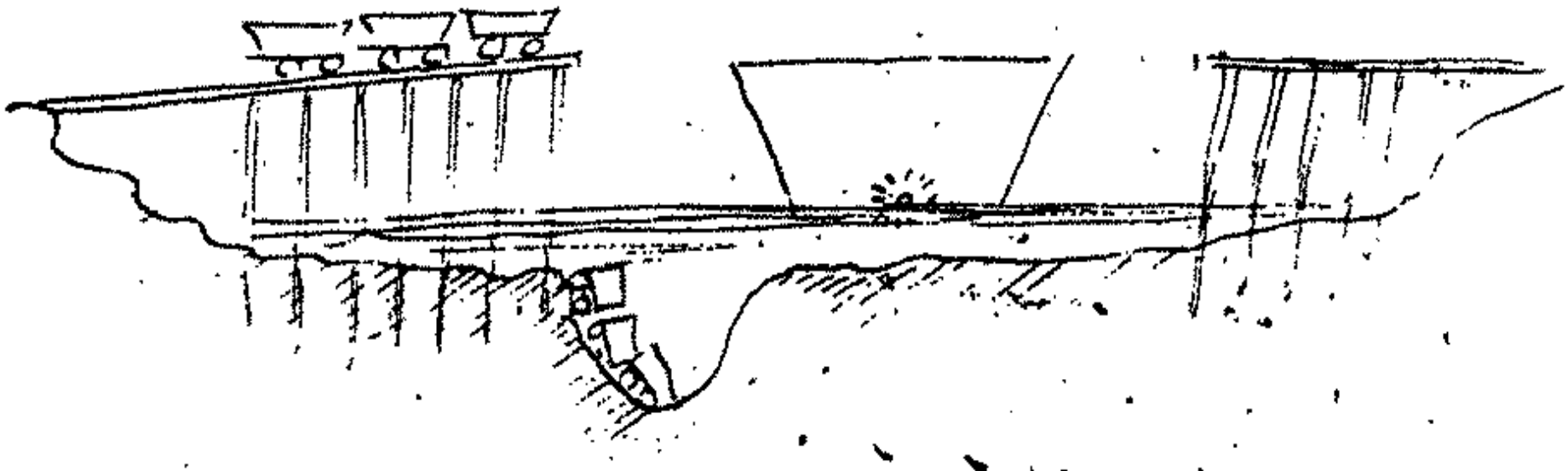

حادثة كوبرى كفر الزيات
(رسم تخطيطى لإدريس افندى)

ولقد قدر مبلغ ما ينفقه سعيد فى نزواته الجنونية المتنوعة فكان فى اليوم الواحد اكثر من دخل مصر فى اليوم الواحد .

كذب المنجمون ..

كتب المدعو « شيا افندى » الموظف بنظارة الحربية انه قرأ طالع سعيد باشا فاظهر ان وفاته ستحين سنة ١٢٧٥ هجرية التى بدات فى ٩ اغسطس سنة ١٨٥٥ . وقد صودرت هذه الرسالة ، وصدر الأمر بنفى « شيا » إلى فازوغلى ، أى بإلقائه فى النيل اثناء الرحلة . وفى الوقت نفسه صدر الأمر باعتقال جميع السحرة والمنجمين وضاربى الرمل . ومن ضمن هؤلاء التعساء الذين بلغ عددهم ثمانين شخصا ، كان الشيخ « على الليثى » وهو عالم كان يشتغل بعلم التنجيم كغيره من العلماء ، إلا انه كان خدين احمد باشا ، ومن المحتمل ان يغرقوه كما اغرقوا سيده .

موظف كبير !

ان الطريقة التى بها يجعلون موظفا يقفز من منصب إلى اخر جديرة بالملاحظة .

عابدين باشا موظف فى سك النقود كان قد بلغ مرتبة اليكباشى وهو فى السابعة عشرة من عمره . واصبح سكرتيرا خاصا لعباس باشا ، ثم غضب عليه الوالى فنقل رئيسا لجوقة موسيقى « المفروزة » أى فرقة الحرس المنتخبين . ولما لم يكن يصلح قط لهذه الوظيفة فقد نقلوه مديرا لاقليم الجيزة ، وكثيرا ما راه الناس يفر من مكتبه مصطحبا حجابه ، إلى حيث يلهو على شاطىء النهر .

تبذير .. وتقتير

اصطحب سعيد باشا فى رحلته إلى « طيبة » للاحتفال بعيد ميلاده ٣٧ سفينة بخارية ، كانت اخرها تحمل مسرحا للتمثيل .

وتدر مصر حوالى ٢٥ مليون ريال (١٢٥ مليون فرنك) على الباشا — الذى يحكمها ولا يفعل شيئا فى سبيل خيرها فى الحاضر ولا فى المستقبل . ولا يسعى سعيد إلا لتكديس المال ثم تبذيره مع « برافى » و « باستريه » و « دى ليسبس » ويقال انه اودع اخيرا مائة الف جنيه فى اوربا (٢٥٠٠,٠٠٠ فرنك) .

وهو لا يتردد فى استخدام اى وسيلة من شانها ان تزيد ثروته . امر منذ عام ونصف العام تقريبا بإنشاء سجل جديد لمصر ، فقد طلب ان يرى المقياس الزراعى المعروف « القصبة » ، ونظر فيها فبدا له انها اطول مما ينبغى ، وكسر من احد طرفيها قطعة تبلغ نحو عشرة اصابع قائلا :

— منذ الآن ، يكون هذا طول القصبة .

وبهذه القصبة قيدت الاملاك فى مصر . وقد زاد هذا المقياس الزائف دخله بنسبة العشر .

وانا اقدر هذه النسبة على اساس من الواقعة التالية :

كان مسيو « دروفتى » (قنصل فرنسا) قد نال من محمد على ابعدية مساحتها ٣٠٠ فدان فى الفيوم . فلما جاء ابن القنصل سنة ١٨٥٨ يطالب بالامتياز الممنوح لوالده ، وجد ان الأرض التى كانت محددة المساحة فيما مضى تحوى ٢٣٠ فدانا حاليا .

جبـايـة ضـريبـة

اراد سعيد باشا فى اول عهده ان يجبر بعض قبائل الصعيد على ان يدفعوا « الميرى » عن الاراضى التى يزرعونها ، وكان محمد على قد اعفاهم من هذه الضريبة لقاء خدمات ادوها له اثناء حرب الشام . فلما رفضوا ، سير إليهم سعيد باشا فرقا من الجيش هزمتهم . فاذعن الشيوخ على شرط ان يؤمنهم على حياتهم ، غير ان سعيد لم يرغب فى التصديق على هذا التعهد ، وامر بإعدامهم . ورفض الباشا المكلف بقيادة تلك الحملة تنفيذ الامر ، فعزله ، وامر بربط عدد من رؤساء تلك القبائل إلى فوهات المدافع وإطلاقها ، ثم ارسل الآخرين إلى الاشغال الشاقة بالاسكندرية حيث عومل هؤلاء التعساء اقسى معاملة . وبعد انقضاء بضعة اشهر ، قال للباشا طبيبه « لاوتنير بك » ان اولئك المساكين قد اشرفوا على الهلاك ، فاجابه الباشا :

— وهل تظن اننى احضرتهم إلى هنا للابقاء على حياتهم ؟

وهذا العمل الذى افتتح به سعيد عهده قد بدد الآمال التى عقدها اصحاب النية الحسنة والقلوب الطيبة على امير رباه الأوربيون . والآن لا يسبح إلا مسيو « دى ليسبس » وفرقته بحمد الباشا الذى يملأ بالمال خزائنهم .

× × ×

المجـون الرسمى

لقد جرى سعيد على ان يستخدم اوسمته استخداما غريبا لا ينبغى ان نصمت عن إذاعته لكى يعتبر بذلك الملوك الاوربيون الذين يقذفون إلى درك العار بهذه الشارات المشرفة إذ هم يمنحونها لامثال هؤلاء الداعرين . ففى ليالى المجون الكبرى يخلع ثيابه ويظل عاريا كجميع غلمانه . فيقلد احدهم وشاح « جوقة الشرف » والآخر رباط سان موريس او « سان لازار » او شاح « البرج والسيف » البرتغالى ، ويلهو بان ينتهك صاحب الجلالة الامبراطورية او جلالة ملك هذا البلد او ذاك . ولما كان يقوم طورا بالدور الإيجابى وطورا بالدور السلبى ، فليس يحق لاحد ان يستاء .

* * *

ولا يتخذ سعيد حرسه إلا من فتيان تتراوح اعمارهم ما بين ١٢ و ١٦ سنة . وفى الصباح ، يرى المرء نحو ستة من حرس الباشا خارجين من جناحه ، وقد انهكتهم ليلة من المجون اكثر مما ينهكهم نهار من التدريب العسكرى .

ويعطى سموه خواتم من الماس وساعات ذهبية لاولئك الذين يخضعون لنزواته . وذات يوم اراد احد هؤلاء الجنود ان يبيع جوهرة فادى ذلك إلى اعتقاله على اثر اشتباه الصائغ الاوربى فيه وظن ان الفتى قد سرقها . فصرح الجندى بان الباشا هو الذى منحه ذلك الخاتم . ورفعوا الامر إلى الباشا ، فقال :

— الست حرا فى ان اعطى الهبات لمن اشاء ؟

مبـــادىء الحـكم !

لقد امر سموه اخيرا بدفع مرتب موظفيه عن ستة اشهر ، بينما هو مدين لهم بمرتباتهم عن اثنى عشر شهرا (١٠ ديسمبر ١٨٥٨) .

وهذا هو التعليل العجيب الذى ذكره سموه لواحد من الاوربيين كان يحدثه عن بؤس الموظفين :

— ان فى الاستبداد ضمان القوانين وحياتها . فلو اننى كنت ادفع للجيش وللموظفين مرتباتهم بانتظام كما هو الحال لدى الافرنج إذن لطردونى من البلاد عندما تحين اول لحظة تضطرنى فيها الظروف إلى تاجيل الدفع . فالافضل هو التصرف كما نفعل . وهكذا لن يجرؤ موظف

على أن يترك مركزه ، ونحظى بالرضا الشعبى بعض الوقت كلما أمرنا بصرف المتأخر من مرتبات الموظفين على غير ما يتوقعون . أما إذا كانت هناك ميزانية فلن نستطيع أن نتصرف كما نشاء فى المال العمومى ، ولا أن نظفر بخدمات الرجال الذين نحتاج إلى طاعتهم ولا يستحقون أن نخضعهم بالعنف .

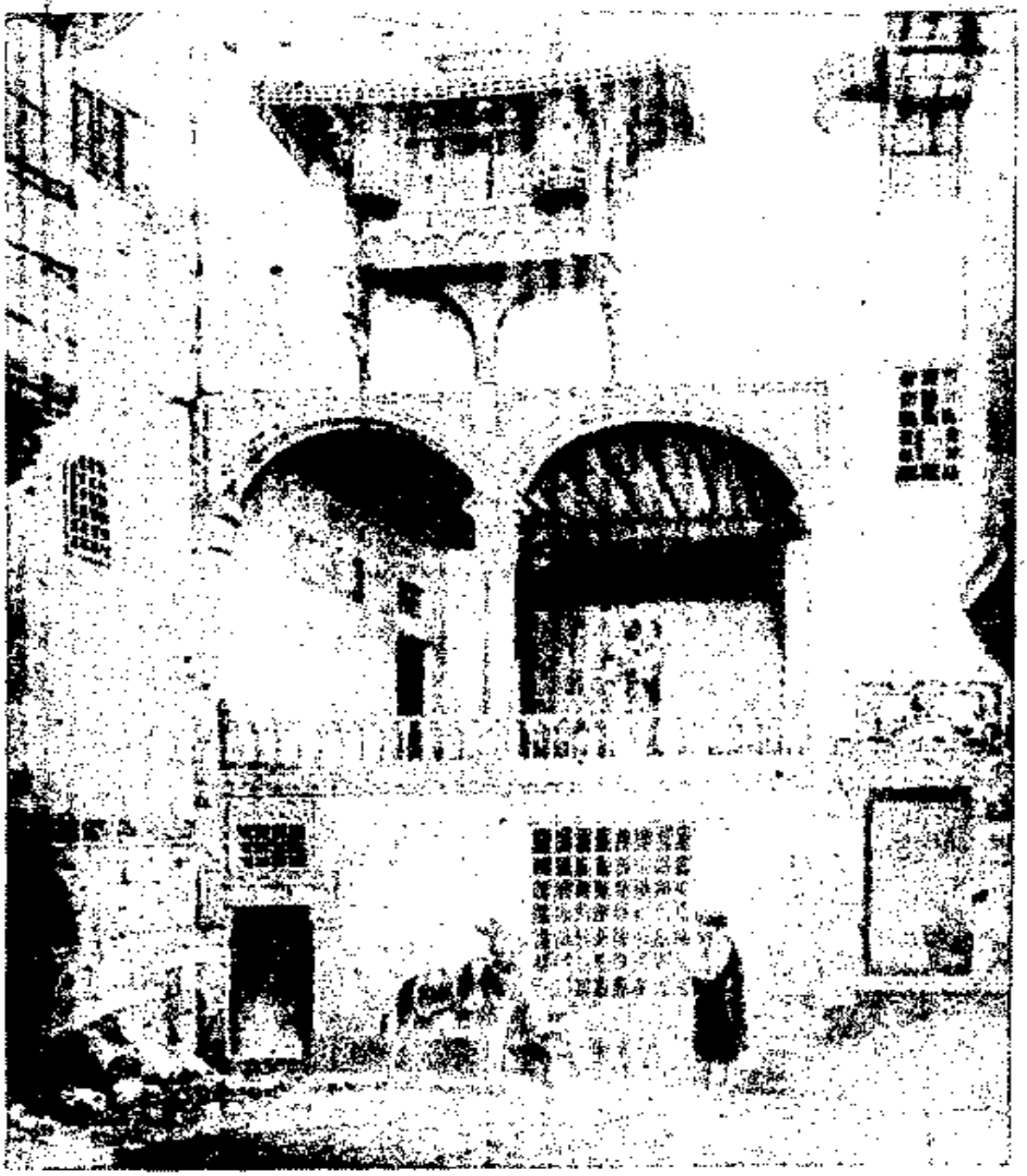

منظر داخلى فى بيت مصرى
خلال القرن التاسع عشر بريشة إدريس أفندى

إسماعيل باشا

مما يجدر بالملاحظة انه من بين جميع ابناء الباشوات الذين تربوا فى اوربا لم تظفر مصر بمواطن واحد ممتاز . فلقد انهكوا اجسامهم جميعا فى المجون ، واخذوا جميع عيوبنا دون ان يكتسبوا واحدة من صفاتنا او فضائلنا .

لا يصلح ابناء شريف باشا إلا للتكبر عليك والجرى وراء البنات .

وقد اعطى إسماعيل باشا ابن إبراهيم للدكتور « بروجيير » كتاب « وصف مصر » قائلا له :

— ارحنى من هذا الكلام الفارغ .

إسماعيل باشا محب للانتفاع إلى حد كبير . ان هباته الكريمة ناتجة عن غروره ، ولكنه لحز شحيح .. فهو يتذكر ادنى نفقاته . قال يوما :

— كلفنى غدائى مع نوبار فى القهوة الانجليزية التى قصدناها منتكرين ١٣٧ فرنكا و ٥٠ سنتيما .

عندما سافر الوالى إلى فيشى فى اغسطس عام ١٨٦٧ ، جمعت الجياد التى كانت تجر مركبته فى بعض الطريق . وكان فى صحبته « نوبار » و « شارل ادمون » فرجياه الا يرتاع والا يخشى شيئا ، ولكن خوفه دفعه إلى أن يقذف نفسه خارج العربة فسقط فى الوحل . وقبل ان ينزل نوبار ليعينه على النهوض قال لصاحبه :

— ها هو ذا فى معدنه .

وعلى اثر عودة الباشا إلى مصر ، وقد صده اصحاب الاموال الذين حاول الاستدانه منهم ، خفض مرتبات موظفيه . وكان نوبار ضمن من شملهم هذا الإجراء ، فاستاء وعزم على ترك الخدمة . ولكنه مضى فاستشار إحدى قارئات الغيب فى اوراق اللعب ، وبناء على ارائها قرر البقاء .

■ ■ ■

الفهـــرس

الصفحة

الإهـــداء ٣

تمهيد إدريس افندى (١٨٠٧ ـ ١٨٧٩)

مؤرخ أهمله التاريخ ٥

مقدمة ١٧

الجـــزء الأول

صور من المجتمع المصرى فى القرن التاسع عشر

القـــاهـــرة ٢٨

مناظر من الاسواق ٢٩

عدالة المحتسب ٣٣

الأمن والعقوبات ٣٤

فن التجـاره ٣٥

منادات الباعة فى القاهرة ٣٦

الكيف ٣٨

الحـريم ٣٩

زوج فرنسى ـ زوجات الشيخ حسن الجبرتى ٤٢

فى الحمام ٤٤

رذيلة تركية ٤٥

دراويش ٤٦

حفلة ختان ٤٧

كرم ومرح وخلود ٤٨

العرس الحزين ٤٩

جولة فى شرقى الدلتا (١٨٣٦) ٥٢

دميـــاط ٥٥

الأتقياء والماجنون ٥٦

سورى فى تاريخ دمياط الحديث ٦١

صفحة

رثاء محمد على لإبراهيم ١٠٣
• عباس باشا :
نشأته ١٠٤
سياسته ١٠٦
بغضه للأوربيين ١٠٨
سعيد باشا :
الابتهاج بتوليته ١١٤
وظيفة جديدة للجيش ! ١١٥
اهتمامه بمصالح مصر ؟ ! ١١٦
مصرع أحمد باشا ١١٧
١٥ يولية ١٨٥٨ ..... ١١٨
كذب المنجمون ١٢٠

رقم الايداع بدار الكتب ٤٧٧٦ / ١٩٩١
الترقيم الدولى I — 0132 — 08 — 977 — ISBN

صفحة

من ذكرياتى فى الاقصر ٦٣
الفـــلاح ٦٩

الجـــزء الثـانى

من محمد على إلى إسماعيل

محمـد على :

صورته ٧٦
شخصيته ٧٧
عسف الاستبداد ٧٨
ظالم باشـا ٨١
واضع القانون ينتهكه ٨٢
دستور الابتزاز ٨٤
تدمير المعدات على حساب الجيش ! ٨٥
ثورة الصعيد (١٨٢٤) ٨٧
ابن « قـولة » البار ٨٩
اين تربية الشعب ؟ ٩٢
اليوّس لمصر الغنية ٩٣
مـاذا عمل لمصـر ؟ ٩٤
آخر ايام محمد على ٩٥

إبراهيم باشا :

صـورتـه ٩٨
مذبحة المماليك الثانية (إسنا ـ ١٨١٢) ٩٩
إبراهيم القائد ١٠٠

حمار من الشرق

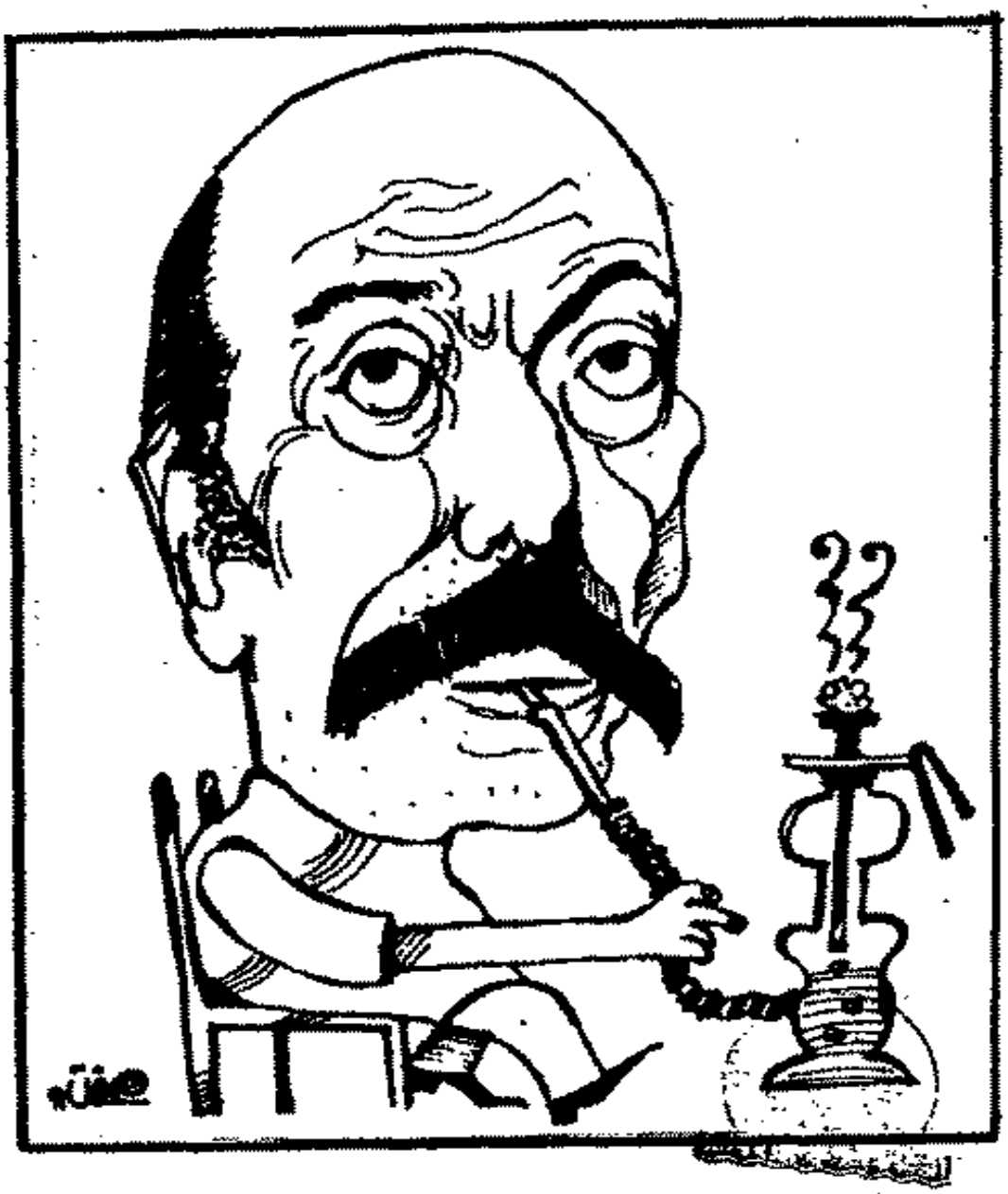

للكاتب الساخر :

محمود السعدنى

• ترقب صدوره •

المنظف العملاق ساتو ٢٠٠٠

بيد الذى يغسل ويطهر ويعطى بياضا ناصعا والوانا زاهية فى آن واحد ..
- بعد ابحاث علمية دقيقة شركة الاسكندرية للزيوت والصابون

إدريس أفندى
فى مصر

منذ اكثر من ثلاثين عاما ، عثر الدكتور انور لوقا الاستاذ المصرى بالجامعات الفرنسية على مذكرات تاريخية هامة ضمن مؤلف ضخم بالفرنسية يتكون من اربعة عشر مجلدا عن مصر ، للمهندس والفنان والمستشرق الفرنسى پريس دافين الذى وفد على مصر فى اواخر عهد محمد على ، ومكث بها إلى اواخر عهد الخديو إسماعيل ، وخلال مقامه شهر إسلامه وسمى نفسه إدريس افندى ، وعايش الشعب المصرى ، ودرس التاريخ المصرى القديم ، واتقن الهيروغليفية ، غير أن عمله الخالد يتمثل فى لوحاته الرائعة للعمارة الاسلامية والفنون المختلفة ، والتى قدم فيها إلى العالم ما خفى من جماليات الفن الاسلامى العظيم ، فى مذكراته التى ترجمها الدكتور انور لوقا وتنشر لاول مرة .

يكتب إدريس افندى عن مصر بعين فنان ومحب ومتعاطف مع الناس ، يرسم صورة للحياة اليومية ، للمجتمع ، للتقاليد ، للعادات ، للأسواق ، إنها لوحة فريدة من اعظم ماكتب إدريس افندى (پريس دافين) بالكلمات .

■ جمال الغيطانى ■

طبعت بمطابع دار اخبار اليو

To: www.al-mostafa.com